

بيت العَدَل
إيناس طه عامر
سيرة ذاتية
كيان كورب
دار ليلى

١٥

إيناس طه عامر

بيت العدّل

الكتاب:

بيت العدّل

المؤلف:

إيناس طه عامر

رقم الإيداع:

2012/ 1914

الترقيم الدولي:

978-977-5283-05-4

★★★

الغلاف:

محمد محمود

الإخراج الفني:

حسام سليمان

التدقيق اللغوي:

رزق عبد المنعم

★★★

التوزيع:

عبد الله شلبي

الإشراف العام:

محمد سامي

★★★

كيان كورب للنشر والتوزيع والطباعة

دار ليلى

المهندسين-23 شارع السودان-تقاطع مصدق-الدور الرابع-مكتب 11

هاتف: 33370042 (02) (002) - 23885295 (012) (002)

البريد الإليكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

كيان كورب
للنشر والتوزيع والطباعة
دار ليلى

إيناس طه عامر

بيت العدّل





إهداء

"يا ضفاف النيل بالله ويا خضر الروابي

هل رأيتن على النهر فتى غض الإهاب

أسمر الجبهة كالخمر في النور المذاب

سابحا في زورق من صنع أحلام الشباب

إن يكن مرّ وحيًا من بعيد أو قريب

*فصفيه وأعيدي وصفه فهو حبيبي"** ..

– إلى حبيبي.. ذلك الفتى أسمر الجبهة غض الإهاب.. إلى من ظل عمره سابحا في زورق من صنع أحلام الشباب، محلقا في سماء عالم عصي على "الترجمة" إلى مفردات عصرنا الاستهلاكي الحالي حتى أيقن أن عليه أن يسبح بزورقه إلى عالم آخر.. قد يكون فيه الآن جالسا مستمتعا بغناء عبد الوهاب توأم وجدانه يتصفح ضفاف النيل أو ضفاف أنهر أروع في جنة الخلد.. إلى من أعارني ملامحه وبث في نبضه.. واقتسم معي روحه.. فكان هو أنا وكنت أنا هو.. إلى من تسائلني كتفاي عن دفء راحتيه..

---

*قصيدة كان يعشقها أبي - يرحمه الله - ويرددها دوما.. وهي قصيدة "كليوباترا".. شعر علي محمود طه، وألحان وغناء محمد عبد الوهاب..

ويسائلني المرح والبهجة عن صاحبهما السمح البشوش.. إلى من تسائلني أحرف القرآن الكريم عنه معلمها وملقنها لي.. إلى أبي: "آه لو شاركتني أفراح قلبي"..

- إلى التي يتعجب التسامح من تسامحها فكان اسمها دليلا إليه.. إلى من هي المادة الخام لإنكار الذات ورضا النفس.. إلى "عكازي" وعمودي الفقري.. إلى خيمتي ووسادتي وفراشي.. إلى التي لا تزال تحمل فيَّ على الرغم من أنني ولدت من زمن ليس بقصير.. إلى التي انتظرت معي "العدل" طويلا طويلا.. ولم تدرِ أنها "عدلي" وأمني الذي ظللت أبحث عنه عمرا بأكمله.. إلى أمي بارك الله لي في عمرها ومنحني رضاها.

- أمي وأبي.. إليكما ذلك الطفل الذي انتظرتماه مني طويلا.. ذلك الوليد الذي أنجبته ولم يمسسني بشر ولم أكُ بغيا.. إليكما وليدي الذي حملتماه معي وقاسينا معا آلام مخاضه.. ذلك الوليد الذي يحمل اسمك يا أبي.. وليد ليس من لحم ودم، وإنما من أحرف مدادها الروح وصدقها وألمها وضعفها وقوتها وبهجتها وشجونها.. إليكما وليدي الأول الذي شهدتما تكوينه لحظة بلحظة.. أهديكما إياه.. مع كل حبي وعرفاني.

- إلى الفارس الغائب الذي تأخر كثيرًا.. لك كل الشكر.. فلولا تأخرك، ما كان هذا العمل الأول الذي أعتز به.

خاص.. عام جدًّا.. (مقدمة)

"العَدل" كلمة دارجة ربما قل استخدامها في مجتمعنا هذه الأيام، لكن مضمونها ما زال قائما رافعا ميزانه ليقدر بـه "وزن" وقيمـة الفتيـات اللاتي ينتظرن في طابوره أو طابور مؤسسته.. ألا وهـي مؤسـسة "الـزواج" بالطبع.. والعدل كما هو واضح من حروف تلك الكلمة مشتق مـن "العـدل" أو العدالة.. أو الفعل "يعدل" أي يحكم بالعدل بين الناس أو يفـصل فـيمن بينهم.. كما أنها أيضا تعني "النصيب" أو القدر مثل أن نقول يعادل ثمنـه كذا أي يساويه وقد تعني أيضا "يعدِّل" أي يعيـد صـياغة الأشـياء إلى قـدر أقرب للصواب، أيا ما كان الاشتقاق الصحيح.. تـرى مـاذا حققـت وتحقـق المرأة في مجتمعاتنا من قيمة هذه الكلمة إن كان عدلا أو تعديلا.. إنصافا أو تصحيحا.. مساواة أو تقديرا؟ وقبل أن يطرأ لذهن القارئ أن كلامي به قدر من التعالي أو التهكم على تلك المؤسسة المقدسة.. دعـوني أصـارحكم أنـني كنت وما زلت أرى أن هذه المؤسسة هي أعظم ما خلق الله من مؤسسات ومن لم ينل شرف الالتحاق بها، مثل شخصي المتواضع، هو إنسان حرم الكثير من متاع الدنيا وبهجتها ومرارتها أيضا التي تلون طعم الحياة وتنكهها..

ولكن لنعد إلى كلمة "العدل" التي تشكل جزءا من عنوان هذه المساحة الخاصة التي أقدمها لكم في صورة سيرة ذاتية خاصة وعامة في آن واحد.. إنها سيرة ذاتية لملايين من فتيات مصر.. بل ولمصر وعالمنا العربي ذاته.. خاصة إذا ما نظرنا إلى مفهوم كلمة "العدل" بعد واحد وعشرين قرنا من الزمان.. حققت فيه المرأة أصنافا عديدة لما أطلق عليه التحرر والمساواة.. فهل كان ذلك حقا المصطلح الصحيح الذي يصف حال المرأة العربية التي نالت قدرا كبيرا من التعليم وحققت فيه مناصب مرموقة؟ وهل قنعت المرأة بتلك المناصب وتلك المصطلحات بعيدا عن فكرة "العدل"؟ ولست هنا بصدد مناقشة توافق أدوار المرأة.. فأنا بعيدة عنها كل البعد.. ما قصدته إذا حققت بالفعل المرأة العربية مناصب عدة لكنها نأت عن تلك المؤسسة العريقة المقدسة بعد كل هذه القرون، فهل بالفعل ذلك لن ينتقص من كيانها شيئا؟ وهل بالفعل أن الزواج في أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين أصبح مجرد شكل اجتماعي.. مكمل لوجاهة المرأة والرجل.. أم أنه لا يزال له القيمة نفسها لدى الكثيرات والكثيرين من الناس.. وأن فقدانه يعني لهم فقدان الكثير أيضا؟ وهل المدنية الحديثة وخروج المرأة للتعليم والعمل أعلى من قيمتها بصرف النظر عن كونها متزوجة أم غير متزوجة.. أم أنه قدم نوعا آخر من "العدل" المستتر تحت

كلمات رنانة براقة تعني التقدم والتطور والحرية.. والمساواة بينما هي في حقيقتها تعني تسعير وتسليع المرأة.. كما كانت من قبل بل ربما أكثر بقيم جديدة وأدوات جديدة.. وموازين جديدة أيضا؟؟

وربما كانت هناك بعض المعالجات التي تناولت هذا الموضوع مرة بشكل جاد جاف ومؤلم.. ومرات بشكل هزلي لكنه مؤلم أيضا لكنني أزعم أنني حاولت أن أتناول الموضوع بشكل واقعي ينبع من حالة عادية جدا لإنسانة عادية جدا تمارس حياتها بشكل أقرب إلى الطبيعي تتألم لحظات وتشقى بنظرات الناس وكلامهم لحظات، لكنها أيضا تضحك لحظات كثيرة وتسخر من حالها وحال المجتمع لحظات أكثر.. وتفكر أكثر.. وتتأمل في جوانب الحياة أكثر.. تحاول أن تختبئ عن أعين الناس أوقاتا.. لكنها تنفض عن نفسها الشرنقة التي أحاطت نفسها بها في وقت من الأوقات لتعود سريعا إلى مجتمعها تتفاعل معه وتنغمس في مشاكله.. وتنصهر مع أحداثه.. تحزن لأحزانه.. وأيضا تستمتع بكل مباهج الحياة التي خلقها الله لنا.. بل وتختلس من مشكلتها ذاتها سببا يجعلها تحمد الله على ما هي فيه.. إذًا هذه المذكرات وإن كانت تخصني أنا شخصيا إلا أنني أعتقد أنها تخص الكثيرات بل والكثيرين أيضا.. وكذلك لم تنفصل هذه المذكرات على الرغم من خصوصيتها عن أحداث عامة سياسية

واقتصادية وفنية واجتماعية كثيرة شكلت خلفية للأحداث الخاصة جدا لي، وأيضا ربما كانت في الأساس أداة فاعلة جدا وصانعة لتلك المشكلة التي نحن بصددها.. ولذلك فإن هذه المذكرات لا تبدأ من حيث مرحلة العنوسة نفسها.. لكنني حاولت أن أبدأها من مرحلة الطفولة، ففي اعتقادي أن أي مشكلة نواجهها تبدأ معنا من الجذور وتكبر شيئا فشيئا وقد أحيطت بمناخ عام وبيئة تساعد على نموها حتى تصير بالشكل الذي نواجهها عليه.. وقد كان الدافع في البداية لكتابة هذه المذكرات دافعا غريبا إلى حد ما؛ فقد تعودت أنا وشقيقتي حين نجلس لتبادل أطراف الحديث أن يكون هذا الموضوع هو المحطة الأولى التي نبدأ عندها وأيضا ينتهي بنا الحديث عند المحطة نفسها نكون قبلها قد مررنا بمحطات شتى.. وكانت شقيقتي دائما تشكل لسان حال المجتمع، فعلى الرغم من أنها تعرفني معرفة خالصة وتعرف كل جوانب الموضوع وتعرف الظروف التي مرت بي فإنها غالبا ما كانت تتهمني بأنني السبب في عنوستي.. مثلها في ذلك مثل باقي المجتمع الذي لا يلوم في كل الأحوال إلا الفتاة التي فاتها قطار الزواج.. إما لأسباب خارجة عن إرادتها كأن تكون قبيحة الشكل مثلا أو بها عيب وسبب ما يجعل الرجال ينفرون منها وإما لسبب تصنعه هي بيدها، كأن تكون رافضة متعالية لا يعجبها العجب

وأوصاف كثيرة تلحق بالفتاة وحدها وتحمل أوزار مشكلتها وحدها دون أن يعيب الرجل شيء.. وكثيرا ما كنت أسهب في الدفاع عن نفسي وعن كثير ممن هن في مثل حالتي.. حتى ينتهي الحديث بنا إما "بخناقة".. وإما بتجنب كل منا للأخرى وإعلان التوبة عن عودتنا إلى هذا الحديث مرة أخرى.. ولكن ما هي إلا أيام حتى نعود لتبادل الحديث معا وتتكرر الأحداث في المحطات نفسها.. وهكذا.. لكنني قررت في إحدى المرات أن أكتب ما كنت أقوله في "خطة دفاعي" الشفهية عني وعن من هن مثلي.. وقررت أن أحاول أن أرى الأحداث بحيادية قدر الإمكان، بحيث أراني من خارج الصورة وليس من داخلها وفي الوقت نفسه أشرح أحاسيسي بصدق شديد حتى أنقل هذه الأحاسيس كما هي لعل النظرة المتهمة لي تخف حدتها.. فأنا وحدي التي تخصها تلك الأحداث ولا أحد غيري..

ومن هنا بدأت كتابة هذه المذكرات.. وظلت حبيسة فترة لم يرها أحد حتى جاء يوم أطلعت عليها صديقي الوحيد الذي هو أبي.. ففاجأني بقوله: "وكأنني أراك لأول مرة"، ثم بدأ هو بإطلاع المقربين لنا عليها.. فإذا بي أواجه موجة رائعة من التشجيع والاستحسان.. أخجلتني أشد الخجل ورفعت من روحي ومن طاقتي الإيجابية ما جعلني أستعيد الثقة بنفسي بعد أن كنت قد فقدتها لعدد من السنوات.. وهو ما شجعني أن

أنشر هذه المذكرات التي تشكل جزءا عزيزا علي.. تحمل عنوانًا عامًا هو "بيت العدل" ثم يحمل كل فصل منها عنوانا خاصا به.. وهي ليست متسلسلة زمنيا بمعنى أن كل فصل منفصل عن سابقه أو لاحقه..

إذًا.. فلتسمحوا لي أن أقدم لكم رؤية متواضعة من خلال حياتي الشخصية التي هي بالتأكيد تتلامس في جوانبها مع ملايين من فتيات مصر وربما فتيانها.. ممن عاشوا في تلك الحقبة الزمنية بنفس الظروف وبنفس المؤثرات.. تلك الشريحة المجتمعية التي ولدت بُعيد نكسة أو هزيمة 67 ومرت بطفولة عاصرت انتصار 73.. ثم مراهقة نشدت السلام وتخبطت مشاعرها مع بنود معاهدته.. وتلون وجدانها بالكثير من ألوان الفنون والثقافة والاقتصاد على إيقاع أحداث ساخنة أحيانا وفاترة أحيانا.. لكنه في كل الأحيان أفرز تغيرا مجتمعيا شديد القوة والتأثير.. حتى إذا ما نضجت تلك الشريحة وتهيأت لدخول تلك المؤسسة الاجتماعية الأرحب والأقدس مقدمة كل تلك المكونات المشكلة لشخصية شبابها كمسوغات تأهيل لتلك المؤسسة.. تأخر عليها الإيجاب لطلبها.. سنوات وسنوات وربما للأبد.. أرجو أن أكون موفقة في تلك الرؤية وألا تكون مملة بالنسبة لكم.. والآن فلنبدأ معا الرحلة..

أطفال المفاتيح

أتذكر أنني كنت في الصف الثالث أو الرابع الابتدائي حين كنت أطالع تقريرا صحفيا منشورا بجريدة "الأخبار" بعنوان "أطفال المفاتيح" في صفحة كاملة.. كانت هي المرة الأولى التي أقرأ فيها موضوعا بهذا الحجم.. العنوان جذبني.. لمسني.. شعرت أني مقصودة به.. فمنذ أن كنت في الصف الثاني الابتدائي حين خرجت أمي للعمل، وأنا أعود من المدرسة لأنتظر أمي عند خالتي التي كانت تقطن في الطابق الأسفل من الطابق الذي نسكنه، ولكن ما لبثت خالتي وأسرتها أن سافروا إلى الخليج.. حتى باتت هناك مشكلة وهي إلى أين أعود حتى ترجع والدتي من العمل.. فكان بيت الجيران بديلا وذلك حينما كانت هناك تلك القربى والحميمية بين الجيران.. لكنني ضقت بهذا الحال فكنت أحيانا أنتظر على السلم.. إلى أن قرر أبي وأمي أنني كبرت وأستطيع أن أتحمل مسئولية (مفتاح).. أتذكر كيف أخذت أول دورة تدريبية لي تعلمت فيها كيف أفتح الباب بالمفتاح دون أن ينكسر وكيف أغلقه أيضا.. والأهم كيف أخرج المفتاح وأضعه سريعا في "الشنطة" حتى لا يضيع أو أنساه في أي مكان.. منذ ذلك الحين أصبحت طفلة من "أطفال المفاتيح" حينها وبعد إتمام قراءتي لهذا الموضوع.. لم أسعد

أن اسمي ورد ذكره في "الجورنال".. عفوا.. أقصد الفئة التي أصبحت أنتمي إليها.. أو أجد ارتياحا لأن هناك من يشاركونني تلك الصفة وتلك الظروف.. أو حتى لأنني وجدت من يتكلم نيابة عني ويعطيني حيزا من الوجود في هذا المجتمع ولكن كل الذي أذكره أنني ظللت اليوم كله مكتئبة وحزينة.. بل وأتألم لمثل من هم في ظروفي وممن يشاركونني هذه الصفة لم يكن الحزن والاكتئاب لأن الصفة رديئة أو أني تصورته ذما أو تندرا أو حتى إحساسا بالشفقة.. ولكن لأن هذا التقرير الصحفي قد مس "وجعا" أشعر به منذ كنت بالصف الثاني الابتدائي ولم أستطع أن أتحسسه ولا حتى أعرف مكانه.. فإذا بي حينما قرأت هذا التقرير.. أتحسسه لأول مرة.. أعرف أن كلمة "وجع" ربما تكون كبيرة على مثل هذا الموقف، ولكن ربما لأننا بنتان فقط لأب وأم كرسا حياتيهما لابنتيهما وحاولا قدر إمكانهما أن يجنبانا أي لحظة من لحظات الألم.. فنشأنا مرهفتي الحس إلى حد كبير.. مما جعلني أستشعر عند قراءتي للموضوع تلك اللحظة التي أضع فيها المفتاح في "كالون" الباب ليلف دورتين فينفتح الباب الذي يقودني إلى فراغ أفتقد فيه حضن أمي وضمتها ويظل هذا الوجع يلح علي حتى بعد أن تعود أمي لاهثة.. تتجه إلى المطبخ مباشرة لتجهز لنا الطعام.. حينها تتذكرني فتسأل إن كنت قد أكلت "الساندويتشات" التي تعدها لنا حين

تصحو من الفجر.. قبل أن تخرج لعملها.. ويا للكارثة إن صارحتها بأنني أكلت هذه "الساندويتشات" حينما عدت إلى المنزل، ربما كنت أفعل ذلك كي تملأ تلك الساندويتشات فراغا كبيرا يحيط بي في كل مكان من البيت الهادئ الصامت البارد، لم تكن في تلك الأيام قد ظهرت كل أنواع "الشيبسي" والمقرمشات والحلوى المختلفة التي تملأ الأسواق الآن.. اللهم إلا نوع واحد أو اثنان وهما "العسلية" و"الفشار" وكثيرا أيضا ما حذرتنا أمي من هذه "العسلية" التي لا تعرف مصدرها وكيفية صنعها.. إذًا نبهني هذا الموضوع الصحفي وأرشدني إلى مكان هذا الوجع.. يومها أخذت قرارا ظل حبيسا بداخلي حتى أخذت الثانوية العامة ودخلت الجامعة حينها أطلقت هذا القرار لينطلق في فضاء رحب.. كان هذا القرار هو: أنني لن أعمل وأنني أنتظر اليوم الذي أتخرج فيه لأتزوج وأبقى في المنزل.. أي أكون "ست بيت" وما العيب في ذلك؟! نعم.. فقد كنت دائما ما أخجل أن أقول ذلك في مجتمع جديد أصبح يقدر عمل المرأة وتعليمها.. ولكني كنت كثيرًا إذا سئلت وأنا طفلة عن المهنة التي أحب أن أمتهنها حينما أكبر.. أرفض تماما فكرة أن أكون دكتورة أو مهندسة كما كان الأطفال يرددون دائما وإنما كنت أقول لا أعرف أو أكتفي بالصمت.. لأني كنت في الواقع أتمنى أن أصبح "ست بيت" لم يكن الزواج بحد ذاته هو الحلم.. لكنه كان البيت.. فقد ظلت صورة

البيت الهادئ الدافئ الذي تطرزه امرأة بألوان شتى من الفنون والزخارف، وتتطاير في أنحائه نغمات شتى لأغنيات جميلة أو موسيقى هادئة.. أصوات تنادي بعضها بعضا في عز الظهر وليس في المساء مثلما نجلس أمام مسلسل الساعة السابعة ونتابعه بشغف ونحن صامتون.. نعم صامتون لكن أنفاسنا تتردد بجانبنا فنشعر أننا معا.. لكننا أيضا نفتقد بجانبنا "نفس" أمي التي كانت أنفاسها تتردد في حجرة أخرى لأنها كانت تغط في نوم عميق يتيح لها الراحة من يوم عمل شاق، وكذلك يتيح لها يوم عمل جديدا سيبدأ في الغد، ظل هذا الحلم يراودني.. "بيت" نعم "بيت" أريده أنيقا نظيفا مهندما.. ليس الزوج بالطبع لكنه "البيت" أركانه هادئة منمقة وقطع أثاثه بسيطة وقليلة فأنا لا أحب أبدًا زحمة الأثاث في مكان واحد.. بيت مرصع بفنون من صنع يدي.. وبه كنبة أو ربما كرسي كبير أجلس عليه باشتياق أرمي عليه كل همومي.. أجلس عليه وكأنني أجلس على عرشي مستمتعة بكل تفاصيل حياتي اليومية.. مستمتعة بكوني امرأة أتذكرني فأجدني حينها في المرآة أبتسم إلى.. وأعود إلى عرشي من جديد أتمتم بالحمد لله على هذا الرضا وصفاء النفس.. إذًا أنا قاب قوسين أو أدنى من هذا الحلم أنتظره بفارغ الصبر.. أشتاقه في كل لحظة.. لكنني وأنا آخذة في الحلم بذلك البيت نسيت تماما أن أضع تصورات واضحة لذلك الفارس الذي تنتظره كل

الفتيات يأتيهن على حصانه الأبيض.. نسيت تماما أن أتخيل ذلك الفارس الذي سيقدم لي هذا البيت.. كانت أول صدمة أو لنقُل إفاقة أفقت عليها من ذلك الحلم حين طرق باب بيتنا أول عريس لي.. كان ذلك يوم زواج أختي لم يكن يريدني أنا تحديدا بل كان مرشحا من قبل أحد الأقارب.. ربما يكون ذلك هو السبب في أني رفضته فأنا لا أعرف حتى الآن لماذا رفضت على الرغم من حلمي الغالي المستمر معي.. ربما وهذا هو السبب الأرجح أن الفتاة لا تسعد كثيرًا إذا كان أول الطارقين على بابهم هو نفسه زوج المستقبل فكم يسعد الفتاة ويشبع نهم الثرثرة والتفاخر عند أمها أن يقال "ياما جالها عرسان ورفضتهم" غير أن أمي في الحقيقة التي كانت تضع يدها على قلبها لأن زواج أختي أتى على الأخضر واليابس من مدخرات الأسرة البسيطة.. فلم تلح علي كثيرًا في أن أقبل ذلك العريس على الرغم من أنني لم أكن صغيرة وقتها فقد كنت في السنة النهائية بالجامعة، أي قبل تخرجي ببضعة شهور، لكنني رأيت وقتها أنه يجب علي الانتظار.. كان ذلك في نهاية الثمانينات وأوائل التسعينات من القرن الماضي..

وبدأت رحلة الانتظار...

سنة أولى

كنت قبل دخولي المدرسة – وكان ذلك في أوائل السبعينات حيث كانت مصر تغلي تحت وطأة هزيمة قاسية تلقتها في يونيو عام 1967.. سنة مجيئي إلى هذه الحياة – الشغل الشاغل لأمي؛ حيث كانت تحيطني بكل الرعاية والتطلع لغد أفضل.. أتذكر جيدا أنني أتقنت القراءة والكتابة بشكل جيد قبل دخولي المدرسة بفضلها.. فقد كنت أنا عالم أمي الوحيد الذي تضع فيه كل خبراتها.. وذلك حينما سبقتني أختي الكبرى إلى المدرسة.. فكنا أنا وأمي نبقى وحيدتين بالمنزل حتى يعود أبي من عمله وشقيقتي من مدرستها كانت حرب الاستنزاف هي الخلفية التي نطالع معا فيها الدروس.. فقد كانت أمي قد انتهت من تدريس الكتب المدرسية لي التي سآخذها عندما ألتحق بالمدرسة.. وبدأت تطلعني على أشياء خارج نطاق هذه الكتب فكانت الجرائد اليومية.. حينها كانت الكلمة التي عرفتها جيدا قبل أن أقرأها ثم عرفتها أكثر حينما علمتني إياها أمي كتابة وقراءة هي: "إسرائيل" حتى إذا جاء عام 1973 وجاءت معه السن المناسبة لالتحاقي بالمدرسة دخلت مصر كلها إلى عالم جديد.. حيث

قامت حرب السادس من أكتوبر فما لبث العام الدراسي أن بدأ فإذا بنا بفعل الحرب نصبح من المهجرين.. ليس من بيتنا أو مدينتنا، ولله الحمد، وإنما من المدرسة، ذلك العالم الجديد الذي دخلته لأول مرة.. فقد كانت مدرستنا قديمة جدًّا.. وربما لم يكن بها استعدادات كافية للدفاع المدني.. بالطبع لم أكن أعرف تحديدا لماذا نحن في مدرسة أخرى غير التي بدأت بها أيامي الأولى في رحلة التعليم.. كان أول إحساس لي بالغربة.. ويبدو أن ملامح شخصيتي قد تشكلت منذ تلك اللحظة.. فما زلت حتى الآن أعاني عندما أنتقل من مكان لآخر.. إذًا انتقلنا إلى هذه المدرسة وكل ما أتذكره جيدا عنها أنها كانت أوسع وأحدث من مدرستنا.. وما زلت أذكر ذلك اللون الأزرق الذي كان يغطي نوافذ الفصول حولنا من كل اتجاه وأيضا نوافذ الأبنية السكنية والإدارية وقتها وما زال محفورا بذاكرتي تلك السواتر الخراسانية المبنية أمام كل الأبواب التي كانت تنفعنا كثيرًا في ألعاب "الاستغماية" وما شابه، ومنها بالطبع باب المدرسة وباب المبنى المؤدي إلى الفصول.. كل ذلك كان استعدادا للحرب.. التي كانت تنتظرها مصر طيلة ستة أعوام طويلة.. انتهت الحرب.. وانتهت معها المعاناة اليومية المريرة من الترقب والحذر شعرنا لأول مرة بفرحة النصر حتى ونحن أطفال في هذه السن.. استشعرت مدى الراحة التي ملأت أمي بعد

الانتصار.. فقد كانت أمي وما زالت شديدة الإحساس بالخوف إذا سمعت بأي خبر عن أي حرب سواء قريبة أم بعيدة.. انتهت الحرب وعدنا لمدرستنا القديمة من جديد.. تلك المدرسة التي يفصل بينها وبين بيتنا سور.. انتهت الحرب وبدأت معها معاناة اقتصادية صعبة على مصر من أجل البناء.. من أجل محو ذاكرة ست سنوات استنزفت فيها مصر استعدادا للحرب.. انتهت الحرب ومعها بدأ عام جديد مليء بالحركة والآمال في العيش والبدء من جديد.. عام جديد ترسخت فيه قدماي في المدرسة وخروجي مبكرا مع شقيقتي يوميا وعودتي قبلها لأعود فأحكي لأمي عن تفاصيل اليوم الدراسي الماضي. انتهت الحرب ليتأكد لوالدتي بأن عصرا جديدا قد بدأ بشعور بالطمأنينة من ناحية الحرب ومن ناحيتنا أنا وأختي.. بعد دخولي المدرسة.. بل وأصبحت هي وحيدة بالمنزل تحاول قدر إمكانها استغلال وقتها في شيء مفيد.. فطرحت لأول مرة فكرة العمل التي قابلها أبي أول الأمر بالرفض الشديد.. ومع الأيام وإلحاح أمي وإلحاح الحالة الاقتصادية أيضا قبل أبي على مضض، ووجدت أمي فرصة عمل كمدرسة ولكن كان عليها الجهاد يوميا كي تصل إلى محطة عملها التي كانت تبعد بعدا كبيرا عن الحي الذي كنا نسكنه.. ولأول مرة تسبقنا أمي إلى الخروج.. ولأول مرة أسبقها أنا إلى البيت آخر النهار..

فلا أجدها.. ولأول مرة أشعر أن هناك من ينوب عنها.. فكانت معلمتي الأولى (أبلة فاطمة) تلك التي كنت أمرض إذا غابت يوما.. فإذا بها بعد عام تنتقل إلى مدرسة أخرى في حي آخر، ثم خالتي التي كنت أعود من المدرسة لأنتظر أمي عندها ثم ما لبثت أن أفتقدها أيضا حين سافرت مع أسرتها إلى الخليج.. ثم أبي الذي كنت أعود من المدرسة لأنتظره حين يعود من عمله كي أمارس معه شغفي بالحكي عن تفاصيل التفاصيل من أحداث اليوم الماضي.. حتى أصبح أبي بالنسبة لي هو واحة الأمان والصديق المقرب.. والمعلم والدليل.. باختصار صرت أنا أبي.. فأصبحت أتكلم بلسانه وأرى بعينيه وأسمع بأذنيه.. طفلة ضئيلة.. شاحبة بعقل رجل أربعيني.. وقور.. ذي حكمة.. غير أن أبي يحمل أيضا إلى جانب وقاره وتدينه وثقافته.. شخصية مرحة جدا يعرفها كل من تعامل معه فهو أيضا رسام كاريكاتيري بارع.. أما أنا فأخذت هذا الجانب أيضا وهو الجانب المرح ولكن كان مخبوءا لا يظهر إلا في البيت أو في أضيق الحدود مع أقرب المقربين، ربما لأني بنت صغيرة دائرة معارفها ضيقة إلى أبعد الحدود فكنت وقتها أخجل أن ألعب مع أقراني في المدرسة.. فاللعب شيء يناسب الصغار التافهين.. أي أن اللعب "مش قيمتي".. ولذلك كان الأطفال بالمدرسة يستغلونني في أن أحرس لهم حقائبهم المدرسية.. لأنني كنت

أجلس في الفسحة كمتفرجة عليهم وعلى ألعابهم فكنت لا أكاد أظهر وسط كومة الحقائب فقد كان جسدي ضئيلا جدا وكومة الحقائب كبيرة جدًّا.. وكم كنت أكره هذه الفسحة كرها شديدا وذلك على النقيض من كل الأطفال.. وللأسف على الجانب الآخر بهتت ملامح أمي في تكويني.. وأصبحت في أحيان كثيرة أفتش عنها في نفسي فلا أجدها.. وبمرور الوقت بدأت تتضح معالم شخصيتي على الأقل بين أقراني في المدرسة.. شخصية رزينة هادئة إلى حد الملل.. خالية من نزق الطفولة وجموحها.. عاقلة إلى حد احتكام الأطفال إلى رأيها.. وافتعال التعقل أمامها بدلا من أن يجذبوها هم إلى عالمهم الطفولي.. حتى أصبحت تواجهني عبارة متكررة.. أسمعها كثيرًا ممن أعرفهم أو أتعرف عليهم.. كنت أفرح في البداية وأنتشي من وقع تلك العبارة وشيئا فشيئا أصبحت أمقتها مقتا شديدا.. كانت تلك العبارة "أصل انتي محترمة زيادة عن اللزوم"!! كانت بالنسبة لي هذه العبارة أشبه بقصة "أشعب" ومركوبه.. الذي ضاق به فرماه فإذا به يعود إليه كلما رماه في مكان ما.. فإذا بفاعلي الخير يجدونه ويسعون إليه مسرعين يعطونه إياه فرحين مهللين وهم لا يدرون أنه يكاد يجن من ملاحقة ذلك المركوب البغيض له.. فكم كنت أحب أن أتغير وأتخلص من تلك الصورة التي لازمتني في أعين الناس.. لكن الناس كانوا يسعون بها

إلي على اعتبار أنها صورتي المعروفة لديهم ويبدو أنني أيضا لم أستطع أن أرمي بها كليا في مكان بعيد فإذا بها تلاحقني.. أسهم في ذلك أيضا تعزيز المدرسات والمدرسين لهذه الشخصية ودعمهم لها، فكانوا يشيدون بهدوئي وصمتي ووقاري هذا في الفصل بين أقراني.. وذلك لأن هذا ما يتمنونه في تلميذ الفصل كي يستريحوا من ضجيج الصغار.. وكلما أشادوا بي كلما زاد التصاقي بتلك الشخصية الخانقة التي ليس بها أي ملمح من شقاوة الأطفال وخفة دمهم.. فيما بعد أصبحت عبارة "محترمة زيادة عن اللزوم" تعني بالنسبة لي من ليس لها قبول أو حضور لدى الناس وهي الخلاصة النهائية التي أحصل عليها من بعد أي تفاعل بيني وبين الناس خاصة الجنس الآخر.. الذين بدأت التعامل معهم فيما بعد في أضيق الحدود عندما التحقت بالجامعة ثم بعد ذلك بعدة سنوات.. في العمل.. وتستمر الرحلة.

حظر تجول

كلمة سمعتها للمرة الأولى في حياتي.. "حظر تجول" ماذا تعني هذه الكلمة؟ في الخارج نار.. رصاص.. قتل.. نهب وسلب.. وأيضا شلل كامل يسيطر على مسيرة حياة وليدة.. بعد حرب طويلة عاشتها مصر على مدى ستة أعوام.. وبالداخل أي داخل بيتنا الحبيب الدافئ.. المتواضع والرحب معا.. سلام وأمان.. حنان ودفء.. ولمة أفراد الأسرة الأربعة.. لماذا هذه المشاعر المتناقضة.. الحقيقة أنني لا أستطيع أن أتذكر سوى وقوفنا على "مسند الكنبة" لنتطلع مَن خلف النافذة الزجاجية ذات الألوان المتعددة.. تلك النافذة التي كانت تنتشر في مصر فترة الأربعينات والخمسينات.. ثم بمرور الزمن لم يبق منها سوى مربع أو اثنين من هذه الوحدات الملونة.. أما باقي الوحدات فأصبحت بالزجاج العادي الشفاف.. المهم كانت هذه النافذة العالية هي واسطتنا إلى الشارع من الاتجاه الجنوبي أو الناحية القبلية كما يقال.. كنا نتطلع منها على الاتجاه الذي يأتي منه أبي.. ولكن كانت هناك شجرة كافور ضخمة تطل معنا على هذا الاتجاه فتحجب عنا الرؤية بدرجة كبيرة.. حتى نتبين ملامح الآتي من خلفها شيئا فشيئا.. كنا ننتظر أبي يوميا في هذه النافذة.. لكن اليوم كان

انتظارنا غير عادي.. ويبدو أننا كنا في فترة إجازة نصف العام لأن ثلاثتنا أنا وأختي وأمي كنا موجودين بالبيت.. لكني أتذكر أن أبي كان بالخارج وكنت أنتظره وأنا واقفة على رأس مسند الكنبة.. ثم بعد أن رجع أبي من عمله.. استمر وقوفي لأتابع الموقف.. كنا نسمع طلقات النار تدوي بالشارع فتقتلع قلبي الصغير فزعا.. وفرحا.. ويا للعجب ما هذه المشاعر المختلطة؟ كنت كلما سمعت أصوات الطلقات بالخارج يزداد حمدي لله على أننا معا بالبيت وأن الأمان كل الأمان.. داخل ذلك البيت الذي أصبحت يوما بعد يوم أرتبط بل ألتصق به أكثر وأكثر.. والرعب كل الرعب خارج البيت.. فكان فرحي أن وجودنا معا بالبيت وعدم خروجنا بأمر حكومي.. نعم كان ذلك قرارا حكوميا بحظر التجول ابتداء من الساعة الرابعة بعد العصر ولا أدري لماذا ما تبقى لدي من ذكريات عن هذا اليوم العصيب في تاريخ مصر وهو يوم 18 يناير واستمرار الالتهاب إلى اليوم التالي.. لا أدري لماذا بقيت لي من هذا اليوم ذكريات الأمن والطمأنينة ودفء الشتاء.. وشوربة العدس.. وغناء عبد الوهاب من خلال الإذاعة.. أتذكر أنها المرة الأولى التي استمعت فيها لأغنية "الروابي الخضر" لعبد الوهاب.. ولأن والدي من أشد الناس ولعا بمحمد عبد الوهاب.. فقد استقبل تلك الأنشودة باستمتاع شديد على الرغم من الأحداث الدائرة بالخارج والتي أطلق عليها

فيما بعد "انتفاضة الحرامية" كما سماها الرئيس السادات.. المهم كان والدي يستمع للأغنية باستمتاع وتلذذ بكل كلمة وكل جملة موسيقية وظل يتعجب لماذا لا تذاع هذه الأغنية كثيرا؟ وظللنا نحن نستمتع باستمتاع والدي.. وما زالت هذه الأغنية تحمل لي ذكريات خاصة تربطني كثيرًا بإحساسي بالوطن.. ذلك أنني وعيت في هذه اللحظة على ما تعني به كلمة وطن.. بعيدا عن الحرب وخارج نطاق مواجهتنا للعدو الذي كانت تمثله إسرائيل بكل البغض.. ولكن بعد هذه الأحداث.. وبعد ما شاهدناه في الجرائد بل وفي الشوارع فيما بعد.. أصبح لكلمة وطن وقع آخر.. فقد رأيت بعيني آثار قطار محترق بأكمله.. وهياكل حافلات.. موشحة بالسواد متآكلة الجسد.. تلك المناظر لم أرَها خلال الحرب مع إسرائيل، لأول مرة يتسرب إلي إحساس من نوع جديد لم أجربه من قبل.. ألا وهو السلام الداخلي.. ولأول مرة أيضا أشعر بمعنى عبارة "ملكية عامة" ولأول مرة أشعر بالخوف على تلك الملكية.. ولأول مرة تدخل إلى قاموس لغتي كلمة جديدة اسمها: السياسة، ربما كان لتعليقات أبي حينما كان يستمع لأغنية عبد الوهاب وما تبعها من تحذيرات للمصريين بعدم الخروج من المنازل ابتداء من الساعة الرابعة عصرا إلى حين انتهاء فترة الحظر الذي ستقرره السلطات.. ثم ما كان يستتبع ذلك من إذاعة للأخبار التي تصف

حالات الاضطرابات التي عمت مصر في ذلك اليوم.. أثر كبير في أن تتعمق تلك الكلمة لدي.. وأيضا ذلك الإحساس الجديد لكن أغنية "الروابي الخضر" لعبد الوهاب ارتبطت عندي إلى الآن بمشاعر لوم موجه إلى شعب عانى طيلة ست سنوات من احتلال رابض على أرضه.. ثم ذاق أخيرا فرحة النصر.. ولكنه لم يصدق نفسه.. ولم يصدق أنه قادر على الانتصار وعلى أن يبدأ من جديد.. ربما استعذب سنوات الألم والهزيمة فهب بقوة عند أول شرارة ليبحث عن جرح جديد.. يستطيع أن يستظل به وينام لأنه لم يعد قادرا على التعايش في زمن مختلف..

أعتقد أن هذا اليوم على الرغم من كل ما به من أحداث.. فإنه رسخ لديَّ إحساسي بالبيت.. والدفء العائلي والرغبة أكثر في أن أكون "ست بيت".. لكنه أيضا زرع في تكويني إحساسا جديدا يؤكد أن تلك الكلمة (السياسة) لا تبعد كثيرًا عن بيتنا.. فقد علمنا وقتها أن إحدى الجارات التي كانت في الوقت نفسه معلمة أختي بالمدرسة أصيبت بطلق ناري في رأسها كاد يودي بحياتها.. وذلك بعد أن ضربت بالتحذيرات عرض الحائط وخرجت بعد الساعة الرابعة المقررة لبدء حظر التجول حيث كانت هذه المعلمة من الحريصات على إعطاء الدروس الخصوصية لزيادة دخل أسرتها.. على أنني لا أتذكر تحديدا هل كان لوقع ارتفاع تلك

الأسعار التي سببت هذه الموجة العارمة من الغضب أثـر علـى بيتنـا علـى الرغم من أننا كنا نصنف وقتها، وأظـن إلى الآن، ضـمن الطبقـة مـا تحـت المتوسطة بقليل من ناحية الوجاهة الاجتماعيـة وبكـثير جـدا مـن ناحيـة الستر المادي.. غير أن أمي، بارك الله فيها وأمدها بطول العمـر والـصحة، لم تكن شكاءة في يوم من الأيام سوى من بضع كلمات تتندر بهـا حين تنـزل إلى الأسواق وتأتي منزعجة من قـسوتها.. غـير ذلـك لم تكـن لتتـبرم أبـدًا مثلها مثل كثيرات من النساء المصريات اللاتي يتكيفن مع ظروف حياتهن وكأنها أمام أمر واقع.. ولذلك كانت أسباب تلـك الغـضبة الـتي لا يعـرف حتى الآن هل كانت تلقائية عفوية أم أججها تدخل ما مفتعل.. إلا أن تلك الغضبة لم تكن لها مساحة قوية لدى بيتنا المتواضع.. إلا من بعض كلمات التبرم اليومية العادية.. لكن وقع الأحداث علينا كان أقوى بكثير من وقع أسبابها. فيما بعد ذلك بعدة سنوات.. تكررت على مسامعنا الكلمة نفسها من جديد "حظر تجول" كنت وقتها في السنة الأولى لي بالجامعة وللحظ لا أعرف إن كان سيئا أم حسنا لكنها إرادة الله ونعمته علـي في كـل الأحـوال أن جنبني أيضا تجارب ذلك اليوم.. فقد كنت متابعة فقط مثل المـرة الأولى لأن ذلك اليوم كان يوم إجازتي الأسبوعية بالكلية وبالطبع لم أخرج لكننـا سمعنا أنباء عن انتفاضة أو ثورة الأمـن المركـزي في هـذه المـرة كـان وعيـي

بالأمر قد أصبح أكثر نضجا.. فقد كان لكلمة السياسة حضور قوي وقتها.. ذلك الوقت الذي كانت فيه أسباب هذه الثورة لم تتضح بعد.. وربما إلى الآن فقد كان للحادثة أكثر من تكهن.. لكنها المصادفة تتكرر بين يومين يحملان نفس العنوان في تاريخي على مدى ما يقرب من عشر سنوات.. وتتكرر أيضا في ملابساتهما.. فهل كانت مصادفة أن تحدث تلك الأحداث في المرة الأولى في عام 77 أي بعد ما يقرب من ستة أعوام على تولي الرئيس السادات الحكم.. ثم يتكرر المشهد أيضا بعد ما يقرب من ستة أعوام على تولي الرئيس مبارك الحكم؟ وتتكرر أيضا الأجواء الاقتصادية لخلفية لتلك الأحداث.. فتكون مصر في الحالتين بين مطرقة البنك الدولي وصندوق النقد الدولي وسندان التطلع الاقتصادي الجيد للمواطن المصري؟ وهل هي مصادفة أيضا أن تتحرك الجموع في الحالتين على أثر بعض من المنشورات والإشاعات التي انتشرت سريعا كالنار في الهشيم؟ ربما تكون لها بدايات وأسباب أعلنت بالفعل إلا أن تحرك تلك الجموع بشكل يكاد يكون ممنهجا خاصة في الحالة الثانية.. كان به بعض الغموض.. والغريب أن تكون المصادفة أيضا في التوقيت فالأولى كانت يومي 18 و19 يناير وكان وقتها إجازة نصف العام.. والثانية كانت يومي 26 و27 فبراير وأيضا كانت في نفس الأجواء القريبة من إجازة منتصف

العام الدراسي.. لكنني بصفة خاصة وعلى الرغم من اهتمامي الكبير وحزني الناتج عن آثار ذلك اليوم المروع فإن أهم ما أسعدني وأدخل الفرح إلى قلبي أن تلك الكلمة: "حظر تجول" جمعتنا لمدة يومين على الأقل في البيت معا وكذلك التحمت تلك الإجازة الإجبارية مع فترة إجازة أخرى لا أذكرها الآن، ربما كانت أيضا إجازة نصف العام.. أو عيد الأضحى لا أذكر تحديدا.. لكن الأهم من ذلك أنني سأبقى بالبيت أطول فترة ممكنة.. ذلك البيت الذي لم يقل حبي له قيد أنملة عما كنت صغيرة بل الأصح أنه ازداد بشكل كبير يقترب من المرض.. ورسخ لدي أكثر فكرة أن أكون "ست بيت".. وتستمر الرحلة...

وطن للغربة

مع أوائل السبعينات بدأت رحلة الهجرة إلى دول الخليج وبـدأت العائلات التي نعرفها واحـدة تلـو الأخـرى تتجـه صـوب كنـز علـي بابـا الجديد.. حتى إذا دخلت مصر من بوابة الثمانينات أصبحنا نتلفت حولنا فإذا بمعظم العائلات القريبة بحكـم الـدم وحكـم الجـيرة قـد اختفـت مـن تعاملاتنا المباشرة لتحل محلها تعاملات عن طريق حبال الود مـن بعيـد.. عن طريق الرسائل وكانت هـي الوسيلة الأساسية والوحيـدة تقريبـا.. لم يكن للتليفون حضور قوي آنذاك.. أذكر أننا كنـا نـسكن عمـارة بهـا ست شقق لم يكن بها سـوى هـاتف واحـد خـاص بأحـد الجـيران.. وكـان هـذا الهاتف خيطا يربط هذه الشقق الست بالعالم ويربط أيضا ما بـين الجـيران ويعمق الإحساس بوحدة العائلات وتكاتفها وتشابك علاقاتـها.. ثم ظهرت وسيلة جديدة أصبحت تمد من حبال الوصل أكثر.. وهي شـريط التـسجيل الذي أصـبح مـع منتـصف الـسبعينات مؤشـرا كـبيرا علـى ارتبـاط حاملـه ارتباطا وثيقا بإحدى دول الخليج عن طريق أحـد أقاربـه أو معارفـه. أيـن الأحبـة أيـن رفقـاء الطفولـة.. أيـن الأقـارب بـل أيـن الجـيران؟! لا أحـد يشاركنا همومنا اليومية وضحكاتنا وسخريتنا مـن تلـك الهمـوم.. لا أحـد

يشاركنا الصحبة في برد الشتاء.. لقد أصبح هذا البرد لنا يخصنا نحن.. أصبحنا نمتلكه ويمتلكنا نحن من بقينا من سرب الطيور المهاجرة.. نحن من تخلفنا عن السرب أو ربما من لا يستطيعون الهجرة في الأساس.. أو حتى التحليق.. تمر الأيام ويعود الصيف بهؤلاء الأحبة والأقرباء.. لكن هذه المرة الصيف لهم.. يخصهم.. يمتلكونه ولا يمتلكهم لأنهم محلقون دائما.. ارتباطهم بأرض الوطن الأم أصبح رهن وطن جديد يشدهم إليه كلما اقتربوا أكثر.. الأيام التي يقضونها في صيف القاهرة هي أيام تردهم إلى ماضٍ ما زالت آثاره باقية في شوارع القاهرة وحواريها وأزقتها.. آثار تؤكد لهم أن الأيام تمر ومصر ما زالت على حالها.. التغيير يجتاح دول الخليج ويوم عن يوم يتغير وجه الحياة هناك.. ومصر ما زالت تحاول أن تثبت أنها لا تزال شابة ولم يزحف عليها القدم.. لا تزال على الرغم من الفقر غنية بتراثها وعراقتها.. يأتي القادمون من الخليج بتقاليع وبدع جديدة تتفتح معها عيوننا وأفواهنا معا.. يا للعجب ما هذا؟ عالم جديد يفتح أبواب مصر الصدئة.. أين نحن من ذلك العالم الجديد.. أصبحنا نعيش معهم في أوطانهم الجديدة أكثر مما نعيش داخل هذا الوطن المظلوم.. نظرتنا له تغيرت ونحن لم نرَ عالما غيره.. إحساسنا بالفقر يزداد على الرغم من تعايشنا مع ظروف هذا الوطن منذ تفتح أعيننا على هذه

الحياة.. أحاديثنا دخل عليها مصطلحات وماركات وكلمات جديدة لم نعهدها من قبل، لكننا ليس لدينا جديد نعطيه لهم.. أو نخبرهم به سوى أخبار من فارق الحياة حيث كنا ندخر تلك الأخبار لحين عودتهم حتى لا نكدر صفو أيامهم هناك.. أو كما كنا نقول لا نزعجهم بهذه الأخبار في "غربتهم".. ترى من كان منا في غربة أكثر؟ أخبار الوطن الأم كانوا يتابعونها أولا بأول من بعيد.. حتى المسلسلات كانوا غالبا ما يحكون لنا عنها مسبقا وماذا سيحدث في الحلقات المقبلة.. لأن تلك المسلسلات المصرية أصبحت تنتج في دول الخليج.. إذا كان الصيف دائما على موعد مع كل جديد يأتينا مع الحقائب الضخمة التي كانت تتسطر على أسقف السيارات التي أصبحت من المناظر المعتادة في شوارع القاهرة مع بدايات شهر يونيو من كل عام يرحل الصيف ويرحلون معه.. لنعود فنرتمي في أحضان الوطن الخريفي من جديد.. ونتساءل أين نحن من هذا العالم الجديد الرحب؟ أيمكن أن يكون لنا حظ من كنز علي بابا الجديد؟ بدأ أبي يفكر جديا في مسألة السفر.. ولمَ لا؟ وماذا يمنع؟ لكنه طرق الباب مرة ولم يكتب له النجاح فلم يحاول ثانية.. حتى جاءته إعارة مسماة من إحدى دول الخليج الواعدة.. أخيرا سنقترب من هذا العالم الرحب.. أخيرا سنترك شتاء هذا الوطن لنعود مع صيفه مثلنا مثل من سبقونا..

سنرى ما يرونه ونشتري ما يشترونه ونرى المسلسلات معهم قبل كل الناس في مصر.. والأهم من ذلك كله سنركب الطائرة مثلهم ونحلق معهم في الفضاءات الرحبة.. سبحنا مع الأحلام الوردية على الرغم من خريف مصر الحزين في تلك الأيام التي حلت بمقتل "السادات" كانت صدمة مروعة لفتاة وعيت فكان السادات بالنسبة لها رمزا ملء العين والقلب.. مع نصر أكتوبر فإذا به بعد ثماني سنوات قتيل ذلك اليوم ولكن بأيدي أبنائه.. ما هذا؟ ماذا نفعل بوطننا؟ أصبحت مصر بالفعل في تلك الأيام وطنا للغربة..

1 ديسمبر عام 1981م تحدد يوم سفر أبي وحده.. أذكر هذا اليوم جيدا.. كان يوم ثلاثاء.. يومها تغيبت عن المدرسة كي نذهب إلى مطار القاهرة لنودع أبي الذي يفارقنا للمرة الأولى.. أبي الذي هو أنا.. أبي حضننا الدافئ في شتاء ليل القاهرة الحزين.. أبي عالمي الخاص وقلبي المفتوح بلا خجل.. أبي الذي لا أستطيع أن أستذكر دروسي من دونه.. هل نستطيع أن نتحمل سنة كاملة أو حتى ستة أشهر يصير فيها أبي مثله مثل من سبقوه إلى الهجرة.. تربطنا به الرسائل وسماع صوته مرة كل شهر من خلال الهاتف، الذي بعد هو الآخر حيث أغلقت شقة جيراننا الذين يملكونه.. وانتقلوا للعيش بشقة ابنتهم التي سافرت هي الأخرى

إلى دولة خليجية.. فما كان علينا إلا أن نذهب مرة كل أول شهر إلى منزل خالي الذي كان يسكن في حي يبعد عنا كثيرًا حتى نتمكن من سماع صوت أبي الذي ترك لنا فراغا كبيرا لا يستطيع أحد أن يملأه، أما أمي الحبيبة التي اكتشفت فيها ما لم أكتشفه من قبل.. عند بكائها ونحن على أبواب المطار بعدما ودعنا أبي.. وعند ترقبها لخطاباته فيما بعد.. بل والأغرب أنها حينما كانت تخرج ثم تعود محملة بالهموم والأعباء فتجدني أنتظرها على السلم.. فإذا بها تسألني بلهفة بالغة: ما بك؟ هل عاد أبوك؟ إذ كانت تنتظر عودته في أي وقت.. كانت تنتظر أن يقطع أبي إعارته ليعود إلى لمتنا من جديد.. وأعتقد أن لسان حالها في تلك الفترة على خلاف كثير من النساء.. كان يقول لا أريد كل تلك الأحلام الوردية التي كنا نحلم بها.. فقط أريده هو.. لم تكن أمي هي الأم والأب فقط في تلك الفترة.. بل ويا للعجب أصبحت أمي ثلاث أمهات وثلاثة آباء في وقت واحد.. نعم فقد أصبحت أمّا وأبا لي ولأختي وهذا هو الأمر الطبيعي.. لكنها أيضا أصبحت أما وأبا لابنة خالتي التي كانت تسكن الطابق الأسفل من العمارة التي نقطنها وذلك قبل سفرهم إلى الخليج.. ثم عادت ابنة خالتي وحدها لتبدأ مشوارها الجامعي.. وكذلك أم وأب لابنة عمي المسافر إلى إحدى الدول الإسلامية التي كانت تبدأ مشوارها الجامعي أيضا..

إذا سافر أبي مثل من سبقوه.. وتـرك لأمـي حمـلا ثقـيلا مـع مـن سبقوه.. أما هي فقد حاولت بطبيعتها المعهودة بعمليتها وأسلوبها الجدي في التعامل مع الأحداث أن تكون على قدر المسئولية الـتي وضـعها القدر فيها وبدأت حياة جديدة ومختلفة.. وأنـا في عـامي الخـامس عـشر.. لأول مرة أعتمد على نفسي في مراجعة دروسي دون أن يتابعني أبي.. وبجـانبي ثـلاث فتيـات يتفـتحن علـى الحيـاة.. مـنهن فتاتـان تبـدآن حياتيهمـا الجامعية وهو أيضا عالم جديد.. فتاتـان في اتجـاهين متـضادين واحـدة في الشرق، والأخـرى في الغـرب وأنـا بينـهمـا حـائرة منبهـرة بتلـك الأمـور الجديدة.. لأول مرة بعيدا عن أبي وقريبا من ابنة خـالتي الجامعيـة ومـع علامات البلوغ التي طرأت علي اكتشفت أنني أنثـى فـإذا بهـا تـصفف لـي شعري وتلفه بـ"البكر" وتعرفنا على أشـكال وألـوان جميلـة وجديـدة مـن أدوات التجميـل وتـستعرض لنـا ملابـسها الجميلـة الآتيـة مـن الخـارج وننبهر بها وبجمالها وشخصيتها الجديدة علينا تماما.. ثم فجـأة نتـذكر ما زرعه فينا أبي من كوننا رجالا.. وأن أبي مطمئن علينا وهـو في الخـارج لأنه يعرفنا ويعرف كيـف كانـت تربيتـه لنـا.. فننبهـر في تلـك اللحظـة بشخصية ابنة عمي الجامعية أيضا والتي أصبحت أيضا قريبة منـا.. فهـي فتاة مثقفـة واعيـة.. لهـا شخـصية قويـة ورأي وحـضور.. وأيـضا مطمـئن

والدها عليها وهو بعيد.. بأنها ستكون "رجلا" ولن تسمح لنفسها بأن تكون غير ذلك. صراع جديد طرأ علي ولم أكن أحسب حسابه.. من أنا ولمن أنتمي؟ أريد أن أكون أنثى مثل ابنة خالتي.. ولكنني في الوقت نفسه أريد أن أحتفظ بملامح أبي.. وأن تكون لي شخصية واعية وناضجة مثل ابنة عمي.. فإلى أين أتجه؟ وإلى أين أسير؟

مرت الأيام لتكتمل ستة أشهر هي فترة السنة الأولى في إعارة أبي.. عاد أبي لكنه لم يعد كما كان.. عاد محملا بهدايا كثيرة طالما حلمنا بأن تكون لنا.. لكنه أيضا عاد محملا بعبء ثقيل وهم أثقل لم أصدقه وأنا أراه للوهلة الأولى وقد نقص وزنه الكثير.. أيكون للهموم هذا الأثر الطاغي على شكل الإنسان الخارجي؟ ابتسامته ومرحه نسيهما في أرض الغربة.. بساطته ورضاه تركهما هناك.. نظرة واحدة في وجهه كانت كافية لتعرف أن هناك سيلا من الدموع مخنوقا بداخله.. عاد أبي وهو عازم على عدم العودة للخليج مرة أخرى.. عاد لكن للأسف بعض منه ضاع هناك وظل أعواما طويلة يبحث عنه في أرض الوطن الذي أصبحنا جميعا غرباء فيه.

الحجاب الحاجز

لم أشعر يوما بأن حجابي كان حاجزا يعوق بـيني وبـين متطلبـات الحياة أو بين ما تفتقده امرأة حين تقرر ارتداء الحجـاب.. ذلـك أنـني لم أذق ما ذاقته تلك المرأة لكي أشعر بفقدانـه.. فقـد ارتـديت الحجـاب وأنـا طفلة لم تتعلم بعدُ معنى الأنوثة ومتطلباتها وكيفية ممارستها.. لم أجـبر على ارتدائه ولم يطلب مني أحد ذلك.. لكن الفكرة كانت أمرا مسلما به أو كانت بالنسبة لي أمـرا عاديـا وطبيعيـا.. أعـرف أنـني سـأتجه إليـه فقـد نشأت على صورة أمي المحجبة خارج البيت بالطبع.. ربمـا في وقـت كـان من الصعب بل ومن النادر.. أن ترى فيه امرأة محجبـة في شـوارع مـصر.. إلا أنني لم يحدث لدي أي انقسام بين ما أراه في الـشارع والأمـاكن العامـة وأجهزة الإعلام.. وما أراه من أمي وبعض قريباتنا.. ثم وجدت بنات عمي اللاتي تربين معي وكن في مثل عمري يرتدين الحجاب حين يصلن إلى سـن البلـوغ.. وكنـت أصـغرهن سـنا ولم أسـتطع أن أنتظـر مثلـهن فأسـرعت بارتدائه قبل أن يصلني ذلك السن.. وقتها لم تستـسغ أمـي الفكـرة كـثيرًا ولم يعترض عليها أبي كثيرًا أيضا.. لكن المجتمع هو مـن كـان يـستهجن تلك الصورة.. ويضع الفتاة التي تقرر ارتداء الحجاب تحـت دائـرة الـشك

وعلامات الاستفهام كثيرًا.. فهي إما أنها تفتقد الأنوثة.. وإما أنها تفتقد الثراء أو المستوى الاجتماعي وربما الثقافي أيضا.. وتفرغ لها "خانة" من نوع آخر تعنون أحيانا بـ"ست الشيخة" أو "الحاجة".. بشكلها الساخر الذي كان جزءا من حالة القصور الذاتي لمناخ عام عاشته مصر في فترة المد الاشتراكي في الخمسينات والستينات.. واستتبع عصر آخر من الفوضى الفكرية والصرعات الحداثية على جميع أصعدة الفن والأدب والعمارة والموضة في السبعينات.. ولذلك حين أهلت علينا الثمانينات بعد أن سمح الرئيس السادات بتسرب قوى التيار الإسلامي في مصر ليحدث توازنا أمام "كفة" المد الاشتراكي.. كانت هناك بضعة اتجاهات أنثوية خجولة لارتداء الحجاب وكنا نحن أنا وأبي وأختي وبنات عمي ضمن هذه الفئة الخجولة وكنا وقتها نسعى لأن نحقق المعادلة الصعبة ما بين التمدين والتدين فكنا نرتدي أغطية بسيطة للرأس فقط تغزل بماكينة التريكو.. وتسمى "بونيه" دون تشديد على حرف الياء.. وعلى وزن "جنيه" و"ديكولتيه".. وأتذكر أن أول مرة تعاملنا فيها مع مثل هذا النوع من أغطية الرأس كانت في رمضان، وجاءت أمي يومها بسيدة تعرفت عليها من خلال المدرسة التي تعمل بها.. وكانت معها طفلتها الصغيرة.. وأظن أننا كنا في أول أيام الشهر الكريم فرحبت أمي بالسيدة وابنتها معتذرة

ومبتسمة للطفلة قائلة "رمضان كريم ولا انتي صايمة يا حلوة؟"، فابتسمت السيدة قائلة: "إحنا مسيحيين".. إذًا أول حجاب لي أو غطاء للرأس في مقام الحجاب كان صناعة مسيحية..

دخلت السنة الأولى الإعدادية وأنا أرتدي هذا الحجاب المصغر وربما لم أكن أشعر بجديته إلى حد كبير.. ولكن شيئا فشيئا أصبحت أشعر أنه جزء مني وأنا جزء منه ولا أتصور نفسي من دونه.. حتى جاء يوم ما زلت أشعر بمرارته إلى الآن حين جاءت إلى فصلنا مدرسة التربية الرياضية وكأنها موجهة ناحيتي حيث كنت أنا وفتاة أخرى فقط نلبس غطاءين للرأس.. لكنني شعرت أنها تقصدني أنا تحديدا.. فطلبت مني الوقوف وسألتني عن أسباب ارتداء ذلك الغطاء وبلهجة قوية أدخلت في نفسي الرعب قالت لي: "فيه حاجة في شعرك؟"، فقلت لها: لا، فسألتني مرة أخرى: هل تعاني من مرض أو شيء؟ فأجبتها أيضا بالنفي.. فطلبت مني أن أخرج من "المقعد" وأن أقف أمام كل الزميلات في الفصل وأن أخلع الحجاب.. حينها بكيت.. ولا أعرف لماذا لم أقل لها إنني أرتديه لأسباب دينية ربما لم تعرف عنها أي شيء.. ذلك أن فكرة الحجاب كانت أمرا شديد الندرة ولا ترتديه إلا الطاعنات في السن ليخفين شيبتهن.. في هذه اللحظة فقط شعرت أن حجابي حاجز بيني وبين المجتمع وليس بيني

وبين ما أشتهيه وأرنو إليه..

ثم انتقلت إلى السنة الثانية الإعدادية وبالفعل دخلت من باب الأنوثة المنتظر.. ووصلتني أول إشارات البلوغ ومن ثم بدأت أحس بجدية غطاء الرأس.. وأصبحت أرتديه أمام أقاربي الذكور.. في تلك السنة قدمت إلينا ابنة خالتي تاركة أسرتها في الخليج ولتبدأ أول أعوام دراستها الجامعية.. كانت متحمسة إلى عالمها الجديد وكنا نرنو معها إلى ذلك العالم الذي سنراه من خلالها للمرة الأولى وليس من خلال الأفلام والمسلسلات.. نموذج الفتاة الجامعية الشابة على الرغم من أننا نعرفها كطفلة كانت تمرح معنا وإن كانت تكبرنا ببضع سنوات.. ولذلك كنا نتتبع خطواتها وملابسها وأسلوبها على الرغم من أنها أيضا كانت تغطي رأسها وترتدي زيا محتشما لكنه كان محلقا نحو الحداثة والصرعات الجديدة خاصة أنها كانت تأتي بكل جديد من الخليج.. وكنت أنا الأكثر تأثرا وإعجابا بها.. فقد كانت شقيقتي تحلق أكثر نحو الأفكار الدينية ولديها أسلوب انتقادي متحفظ على أشكال الصرعات الحديثة.. أما أنا فكنت قريبة منها ومن شقيقتيها وأحذو حذوهن ولذلك ارتديت مثلهن نفس غطاء الرأس الصغير.. غير أنني حينما وصلت إلى الصف الثالث الإعدادي تعرفت على فتاتين محجبتين.. ولأن الطيور على أشكالها تقع..

وربما تحتمي.. خاصة بعد موقف مدرسة "الألعاب" فقد انتمينا إلى بعضنا البعض على الرغم من أنني ظل بيني وبينهما حاجز لم أستطع فهمه.. ربما لتشددهما أكثر مني.. وربما لاختلافي مع بعض أفكارهما.. لكنني في كل حال لم أرد أن أبتعد عنهما أو أخسرهما.. ولذلك كنت أظهر لهما موافقتي على ما تقولانه.. ولذلك كنت أمامهما أحب أن أرتدي حجابا كاملا.. غير أنني في البيت لدي رأيان آخران ضد ذلك، وهما رأيا ابنة خالتي وأمي اللتين كانتا تريان أن جسدي الصغير النحيل لا يتفق مع هذا الملبس "العواجيزي".. ومن هنا بدأ الصراع النفسي بداخلي فأنا أريد أن أكون منتمية جيدة لمن يشاركنني الاتجاه الديني في المدرسة.. ومن ناحية أخرى أود أن أرضي من أقتفي أثرها نحو التحليق في سماء الحداثة ورحابة ألوان الحياة البراقة ومع رأي أمي كذلك وكان الحل أن "رقصت على السلم" أي ابتكرت حجابا أو هكذا ظننت.. حاولت أن يكون جامعا بين وجهتي النظر.. ولكن بالطبع بطريقة تفتقر إلى الخبرة والثقة.. وكذلك إلى الوجاهة والقيمة المادية لأنني كنت أحاول أن أستخدم المتاح أو ألوي ذراعه ليكون مرضيا لجميع الأطراف.. فكنت أرتدي "إيشارب" ثم آخذ بطرفيه وألفهما حول رقبتي بشكل جعل "حكيمة" المدرسة على سبيل المثال تستهجن مظهري فجاءتني مستعدية وقالت أيضا بلهجة

قوية: هل رقبتك تتعبك؟ أو هل أنت مريضة؟ فأجبتها بالنفي فقالت: إذًا ما بك تلفين حول رقبتك هذا الإيشارب؟ وطلبت مني أن أغيره.. كانت هذه السيدة مسيحية لكنني أيضا لم أستطع أن أوضح لها أسباب ارتدائي لهذا الغطاء للرأس.. وهنا أيضا بكيت مرة أخرى.. ربما أصبحت هذه اللحظة بالنسبة لي لحظة فارقة بيني وبين المجتمع وبين أفكاري وتوجهاتي.. بل بيني وبين نفسي التي انقسمت بين عدة أطراف لكنها لم تعرف طريقها بعد ولم تقوَ على أن تنحي كل الأطراف لتأخذ حقها كاملا، ومن هنا ربما سبب لي الحجاب وقتها درجة من كراهية الخروج وحب البقاء في المنزل ربما ظل باقيا إلى الآن.. بالإضافة إلى الكثير من الخجل الذي لدي والذي اصطحبته معي إلى المدرسة الإعدادية ومعه تلك الشخصية التي تلبستني طيلة سنوات الدراسة الابتدائية وهي شخصية البنت المؤدبة التي لا تتكلم أبدًا في الفصل ولا تلعب أو تضحك حتى لا يقولوا عنها إنها "شقية" وتفقد إشادة المدرسين بها.. تلك الإشادة التي رهنت طفولتي وأنا لا أعلم أنها إشادة لمصلحة المعلمين لا لمصلحتي أنا.. وبالتالي فقد حكمت على نفسي بالسجن داخل أعينهم لسنوات ظلت باقية أيضا إلى الآن.. وبارتدائي الحجاب إذا بي أضيف قيدا آخر على تلك الشخصية المسجونة.. إذ نصبت في غفلة مني ومن قبل زميلاتي في الفصل

كمتحدثة رسمية باسم المتدينين وذلك لعادة المصريين أو ربما جميع المجتمعات الذين يأخذهم الشكل والمظهر ويأخذون به أكثر من أي شيء.. وبالطبع كرهت أن أكدر عليهن صفو أفكارهن وأن أنتزع نفسي من سجن أعينهن هن أيضا.. فعشت الدور لكن ليس تصنعا أو زيفا أو وعظا لا سمح الله.. ولكن خوفا فكنت أخاف على سبيل المثال أن أعرفهن أنني أشاهد التليفزيون وأذهب إلى السينما مع أهلي.. وأحب الأفلام الأجنبية والأغاني وما إلى ذلك.. والحقيقة أنني أيضا لم أكن أدعي شيئا غير موجود في ولا أكذب في شيء.. لذلك كان الحل الوحيد بالنسبة لي حتى أحقق تلك المعادلة المزعجة هو ألا أقترب من إحداهن على الإطلاق بدرجة كبيرة.. لكن الأدهى من ذلك أنه عندما بلغت وأصبحت هناك أوقات لا أصلي فيها.. كنت أخجل بشدة أن أقول ذلك أو أمتنع عن الصلاة أمامهن خاصة أمام هاتين الفتاتين المحجبتين اللتين انتميت إليهما.. فكانا عندما تدعوانني للصلاة في الفسحة بمسجد المدرسة كنت أستحي أن أقول ذلك وأحاول التهرب بشكل آخر أو للأسف أمارس التمثيل في بعض الأحيان وأتظاهر بالصلاة وخلال تلك التمثيلية كنت أدعو الله أن يسامحني ويغفر لي هذا التظاهر وهذه "الخيبة" التي لا أعرف لها حلا.. وكم كانت تلك الأيام صعبة ومحرجة وخانقة بالنسبة لي.. أسهم في ذلك غياب الحوار

بيني وبين أمي.. وضبابيته بيني وبين شقيقتي وبنات عمي.. مما جعلني أعيش مع ذاتي فترات طويلة وربما جعلني أيضا أتجنب التعامل مع الناس.

تخطيت المرحلة الإعدادية لألتحق بالمدرسة الثانوية التي كانت أكبر وأوسع ومليئة بأشكال وألوان من الفتيات.. وكنت عازمة على ألا أكرر هذا الصراع مرة أخرى وأن يكون لي مظهر خارجي واحد بدلا من هذا الحجاب "المتردد" الخجول الذي اخترعته لنفسي كي أرضي به جميع الأطراف، وكنت في قرارة نفسي أتمنى ألا تكون هناك أي واحدة من زميلات الإعدادي في المدرسة الثانوية الجديدة.. وكأنني أخجل من رؤية ارتباكي وترددي السابق في أعينهن، وأتطلع إلى أن أكون إنسانة جديدة.. ولكن هذه المرة اخترعت والدتي حجابا جديدا فكان عبارة عن غطاء أبيض مبطن جزء منه بشريحة أسفنجية رقيقة ثم ينتهي في مؤخرة الرأس بضفيرة عريضة ولا أزال أذكر يوما في بداية العام الدراسي كنت أقف فيه في أول الطابور وورائي فتاتان لم أوطد علاقتي بهما بعد.. وكنت أشعر أنهما من عالم يختلف عن عالمي فيه قدر من التحرر والرقي المادي.. فأخذت واحدة منهما تمزح مع الأخرى وتلعب في مؤخرة رأسي وفي تلك الضفيرة من ذلك الحجاب الخصوصي وتقول بـ"تريقة" ضفيرة بيضاء..

وتظاهرت ساعتها بالابتسام لكنه نفس الابتسام الخجول المجوج.. حينها أدركت أن تلك الشخصية المقوتة التي جثمت على شخصي سنوات الابتدائي والإعدادي وودت أن ألقيها في البحر.. قد اقتفت أثري وتتبعتني وحلت علي من جديد.. إلى أن جاءت مدرسة ذات يوم وأيضا أعلنت رفضها لهذه الأشكال من أغطية الرأس وكانت تطلق عليه "منديلا" وأشارت إلي وقالت إن كنت ترتديه تدينا فلترتدي حجابا كاملا.. أما غير ذلك فهو ليس مقبول. في هذه اللحظة قررت أن أرتدي حجابا كاملا.. ولكن كان لأمي بعض الاعتراض وأحسست أنني أود ألا أضيع تعبها في صناعة ذلك الحجاب "الخصوصي" الخجول.. فعزمت على تغييره في العام الدراسي المقبل وقد كان. فجاء العام الدراسي الجديد وقد حمل معه قدرا من التغيير على شخصيتي فأصبحت أكثر ثقة في نفسي، خاصة أنني اخترت القسم الأدبي وأنا سعيدة به وباختياري الذي لم يفرضه علي أحد.. ثم ارتدائي للحجاب بشكله المكتمل، أي لا يظهر مني إلا الوجه والكفان.. وما أسعدني أكثر هو أنني أصبحت ذات مظهر واحد غير متردد أو خجول.. بالإضافة إلى أنني قررت نزع شخصية الفتاة شديدة المثالية شيئا فشيئا فأصبحت أعبر عن إعجابي بالأغنيات التي أحبها وأقول إنني أشاهد التليفزيون والسينما والأفلام الأجنبية بالإضافة إلى أنني أيضا

ولأول مرة في حياتي اشتركت في رحلة مع المدرسة للقسم الأدبي لا أزال أحلف بها إلى يومنا هذا لأنها كانت الأخيرة أيضا.. لكن بالطبع مع كل ذلك ظل الخجل موجودا ولم يبارحني أبدا.. أيضا كانت هذه السنة التي أعتز بها وهي سنة **1984** هي السنة التي تعرفت بها على ملامحي أيضا.. وشكلي الخارجي إذ لأول مرة يتأكد لي أن بشرتي بيضاء وأن هذا أمر جميل ولا عيب فيه.. إذ إنني منذ الصغر كنت أعير بهذا الأمر لأن أغلب من حولي كانوا يميلون إلى البشرة القمحية أو السمراء قليلا.. وربما حدث عندي نوع من "الإنكار" اللاواعي لهذه الصفة نظرا لكثرة ما تعرضت للسخرية من هذا الأمر.. فأبعدت صفة "البياض" هذه عني تماما.. إلا أنني في هذه السنة أدركتها من إشارة الزميلات لي على أنني كذلك وبدأت أشعر بالرضا حين أحسست في كلامهن أن هذا شيء جميل.. فأذكر أنني لأول مرة أرتدي لون حجاب مخالفا حيث إن اللون الرسمي المصرح به هو الأبيض.. فأردت من باب السعي للتغيير الذي فتحته في هذه السنة أن أفعل مثل الفتيات المتحررات وأرتدي زيا مخالفا ولو مرة.. ولو من خلال غطاء الرأس فقط.. المهم ارتديت حجابا رماديا.. وإذا بي عندما دخلت يومها من باب الفصل بزميلة تقول لي بشكل عفوي مفاجئ وتلقائي "الله" فضحكت وأنا فرحة في نفسي بالطبع وسألتها: ماذا؟ قالت:

"لأنك لأول مرة ترتدين هذا اللون الغامق فأظهر بياض وجهك بشكل جميل".. حينها حمدت الله لأول مرة على خلقتي هذه التي غابت عني كثيرًا ولم أكن أعرف عنها شيئا.. ثم حمدته أيضا لأن حجابي بشكله الكامل لن يكون أبدًا حاجزا بيني وبين الجمال أو الشكل المقبول على الأقل.

مرت سنوات الدراسة الثانوية المتبقية بسلام يشوبه القلق.. وأخيرا حصلت على الثانوية العامة وأصبحت فتاة جامعية أنا أيضا.. دخلت كلية الفنون الجميلة ذلك العالم الذي يموج بكل ألوان الطيف.. وكنت فيه لونا مختلفا حيث إنني كنت ضمن عدد قليل جدا من الفتيات المحجبات وبالطبع كنت أصطحب معي تلك الشخصية المثالية الخجولة كالعادة.. ربما لتحميني أو لتكون حاجزا بيني وبين تلك الألوان والأشكال والأطياف المتعددة والجديدة علي.. خاصة أنها المرة الأولى التي سأتعامل فيها مباشرة مع الجنس الآخر.. وكم كان رعبي الشديد من هذا الأمر الذي ما زال يلازمني بعض منه إلى يومنا هذا.. ومن جديد الطيور على أشكالها تقع.. فوسط هذا الكم من الألوان اتجهت إلى فتاة محجبة هادئة جدا وربما يلفها الخجل أكثر مني وبادرت بالتعرف عليها.. وتصاحبنا حتى إن الآخرين كانوا يخلطون بين اسمينا فيعطونني اسمها

الذي هو بالمناسبة اسم شقيقتي ويعطونها اسمي الذي للمفارقة هو اسم شقيقتها أيضا.. فلم نكن نشعر أن المسألة بعيدة.. وشيئا فشيئا تسربت إلى تآلفنا طيور أخرى فكانت بعض الزميلات التي يقتربن من لوننا.. لكنهن لم يكن محجبات ثم ما لبثن أن ارتدين الحجاب لكن دون أي تدخل منا.. ثم فجأة وبعد ثلاث سنوات من دخولنا الكلية إذا بعاصفة "سوداء" تجتاح كلية الفنون الجميلة ذات السمعة العالية في التحرر والانطلاق نحو آفاق الفنون والجنون.. عفوا هذا ليس وصفا أو سخرية.. بل هي حقيقة حدثت بالفعل في المظهر الخارجي لفتيات كثيرات.. فبعد أن انتشر الحجاب العادي بين فتيات الكلية إذا بكثيرات منهن يعجبن بتلك الحركة الجامحة في التغيير إلى لون غاب عنهن كثيرًا.. فارتدين النقاب.. الذي هو بالطبع وفي الغالب لا بد أن يكون ضمن زي كامل باللون الأسود والغريب أن أغلب من ارتدينه لم يكن محجبات منذ فترة قليلة.. لكنهن تكاثرن بسرعة شديدة وأصبحن يشكلن مجتمعا مستقلا بذاته داخل الكلية.. مجتمع الإخوة والأخوات.. وبالطبع كان ذلك أمرا عجيبا لم تعهده كلية الفنون الجميلة من قبل ولذلك كانت هذه الدفعة من أشد الدفعات المكروهة لدى أساتذة الكلية الذين كانوا غير متقبلين في الأساس للحجاب العادي الذي ظللت أنا متمسكة به ومقتنعة به على الرغم من

اتجاه صديقاتي إلى النقاب.. فلك أن تتخيل على سبيل المثال موقف أستاذ من كلية الفنون وفنان كبير ذي اسم شهير يحلق في آفاق الفن وانطلاقاته التي كانت تجعله يرى أن التعامل العادي التلقائي بينه وبين تلميذاته يفرض عليهن أن يتقبلن أن يقبلهن قبلة "أستاذية" بريئة حين يدخل إلى القسم وبالطبع هذه القبلة "الأستاذية" لا تنطبق إلا على الفتيات فقط!! فكيف تتخيل صدمته حين يرى أن تلميذاته لا يتقبلن ذلك فقط بل ويجعلن بينه وبينهن حجابا؟؟ وهكذا.. وجدتني من جديد أعود إلى الغربة، تلك الجزيرة التي تقع ما بين جنون الفنان الكبير وعالمه ومن معه.. وما بين غلو التيار الديني الذي غطى مساحة كبيرة من كلية الفنون الجميلة.. التي شعرت بدرجة كبيرة من الكراهية لها لذلك الإحساس الشديد بالغربة بالإضافة إلى أنني لم أكن أريدها في الأساس وإنما دخلتها لأن الجميع وأولهم أبي وأمي أيضا رأوا أنها التي تصلح لي لأن موهبتي في الرسم جيدة وكذلك لأن شقيقتي تجاورني في كلية قريبة جدا منها في المكان والاتجاه.. وعلى الرغم من تميزي في الرسم وإشادة بعض الأساتذة بي وبمستواي في بداية دراستي بالكلية فإنني أهملت تماما تلك الدراسة وأصبحت أغيب بشكل "متميز" أيضا حتى كدت أترك الكلية، إلى أن انقضت السنتان الباقيتان، وتخرجت بحمد الله..

خلال تلك السنوات أصبح الحجاب له علاقة وثيقة بالسلب والإيجاب في مسألة الزواج أيضا فهناك من يريدها محجبة ومن يريدها غير محجبة ومن يريدها منتقبة ومن يريدها غير ذلك، والفتيات وأمهاتهن يتحيرن ويتقلبن بين كل هذه الرغبات والأمزجة أيضا دون أن يفكرن في رغباتهن أو قناعتهن أنفسهن بالأساس.. أو حتى علاقتهن بربهن.. وشيئا فشيئا أصبح الحجاب هو السمة الغالبة على نساء مصر وفتياتها بل وبعض الأطفال البنات أيضا.. وكذلك في المجتمعات العربية.. بل والأعجب والذي لم يكن يتصوره أحد أن تكون مشكلة "النقاب" لا الحجاب فقط قضية تطرح في برلمانات دول مثل فرنسا وبريطانيا.. حيث انتشرت الظاهرة بصورة ملحوظة.. وسبحان مغير الأحوال.. وتستمر الرحلة..

الزلزال

كانت أجواء قاتمة كئيبة تحيط بي في ذلك الوقت.. أجواء تنذر بحدوث شيء ما.. كنت قد تركت العمل الثاني لي بعد تخرجي في الجامعة وتفرغت لانتظار "ابن العدل" كما كانت تطلق عليه أمي قاصدة "ابن الحلال" بالطبع.. لكنها كانت تؤلف ما بين الألفاظ لتبتكر شكلا جديدا لم نعرفه من قبل.. المهم أنني استجبت للهاجس الذي طالما هتف بداخلي وهو "البيت" ظنا مني أنني الآن في الوقت المناسب ليحدث ذلك، أي أن يكون لي بيت وأسرة وزوج.. ربما كانت تلك الفترة هي أكثر الفترات التي مرت بي انتظارا لهذا الحدث ربما أكثر من أي وقت مضى أو أتى فيما بعد ذلك. انتظرت.. وخلال تلك الفترة صدمت بأن المسألة أصعب مما كنت أتخيل.. كان في اعتقادي منذ طفولتي أن الزواج مسألة بسيطة جدا تتكرر كل يوم.. رجل يعجب بفتاة يراها وتراه.. ويحدث الإيجاب ثم القبول وتتم الزيجة بمثل تلك البساطة.. لكني خلال تلك الفترة وجدت أن الأمر أصعب كثيرًا مما تصورت.. فلأن حياتنا كانت متحفظة إلى حد كبير.. فقد قبلت بفكرة "زواج الصالونات" على مضض متأثرة بقول من حولي بأن هذا النوع من أساليب التعارف هو الأقرب

لطبيعتنا المتدينة والمتحفظة، وعلى هذا الأساس قبلت.. وقابلت.. وقابلت.. وقابلت.. ولكن لم يحدث لا إيجاب ولا قبول.. هنا أدركت بأن المسألة ليست بالأمر الهين.. ونحن الآن في عام 1992 أي مر عامان على تخرجي ومر عامان أيضا على زواج أختي الوحيدة.. وكذلك زواج أغلب صديقاتي وزميلاتي.. إذًا يبدو أنني في وضع حرج.. الناس تنتظر مني شيئا إما الزواج وإما العمل.. وأنا ندهتني "نداهة" البيت.. ولم تندهني بعد "نداهة" الزواج.. إذًا ما الحل؟

أجواء سخيفة ومحبطة كانت تسكنني فوجدتني ذات يوم وأنا في قمة الإحباط حين كنت أقف كعادتي أطل من النافذة أرقب ذلك الشارع العشوائي الهمجي.. كم كنت أشعر بالضيق تجاهه في ذلك الوقت بالتحديد.. وجدتني أتمنى من الله أن يحدث شيء قوي يخلصني من ذلك الشارع وتلك الأجواء المحبطة.. وعلى طريقة صلاح جاهين في رباعيته الجميلة "اخطفني ياللي تحبني ع الحصان" تمنيت في تلك اللحظة أن أختطف اكتشفت فيما بعد أن الكثير من الفتيات في مثل هذه السن يفكرن بمثل هذه الطريقة الساذجة، لم أكن أتخيل أن يستجيب الله لي بمثل هذه السرعة.. بالطبع لم أختطف ولكنه الأمر القوي الذي كنت أنتظر.. ولكن لم أكن أتوقع أو أتخيل أبدًا أنه سيكون بقوة 5.4 بمقياس ريختر.. وكان

أقوى زلزال يمر بمصر في عصرنا الحاضر كنا في ذلك الوقت نتناول طعام الغداء في عصر يوم 12 أكتوبر عام 1992.. كنا قد اعتدنا على اهتزاز البيت متأثرا بحركة الشارع المليء بالحافلات والعربات التي لا تهدأ إلى ما بعد منتصف الليل.. لكن الاهتزازات استمرت وكانت أقوى من أي وقت في البداية لم نستوعب قرقعة اللوحات على الحائط.. ظننا للحظات أنها بسبب أعمال الدهانات التي تجرى بالشقة التي يفصل بينها وبيننا حائط ولكن مع انتشار أصوات صراخ من حولنا صورت لنا ما كنا نخشاه دائما بأن البيت ينهار.. فقد كان بيتنا قديما وكنا نعتقد أنه لن يصمد أمام أي صدمة. للوهلة الأولى أصابنا الذهول والرعب ثم أفقنا على أننا يجب أن نهرب وننجو من هذه الكارثة التي تنتظرنا.. فجرينا بشكل عفوي نحو الباب للنزول إلى الشارع ولا أعلم حتى الآن ما سر ذلك الشعور بالأمان الذي احتواني للحظة.. ما هذا الإحساس المتناقض الغريب.. حتى إنني وجدتني أدخل إلى حجرتي لأبحث عن غطاء لرأسي أضعه وأنا في طريقي للهروب من البيت الذي ظننا أنه ينهار.. ما هذا الثبات وما هذه المشاعر الغريبة.. صاح علي أبي وأخذني بقوة أمامه ونزلنا سريعا على السلم ولا أعلم لماذا تسمرت قدماي وبدأت أنزل ببطء درجات السلم.. إلى أن تأكد لنا أن ما حدث كان زلزالا. هنا حملتنا أرجلنا نحو شقتنا من جديد لكنها

كانت هذه المرة مرتعشة.. صعدنا لنجد مشاهد كانت في تلك اللحظة كوميدية.. الملابس قفزت هي الأخرى من الخزانة لنجدها مكومة على الأرض.. زجاجة الكولونيا أيضا هرعت إلى أسفل الحوض.. ثم تذكر كل واحد منا مشاعره في تلك اللحظة ومفارقات حدثت له.. أكملنا باقي يومنا ضحكا على تلك المفارقات ثم بدأت ترد إلينا أخبار عن عمارات سكنية انهارت كان أشهرها عمارة هليوبوليس المكونة من أربعة عشر طابقا.. انهارت جميعها في لحظة.. حمدنا الله أننا لا نزال بخير وأن العمارة القديمة التي نقطنها وكنا نتخيل أنها ستقع مع أول صدمة صمدت أمام ذلك التحدي.

أهي حالة قصور ذاتي أم أنه ما يسمى توابع الزلزال.. حالة أشبه بعدم الاتزان أصبحنا نحسها باستمرار.. بين لحظة وأخرى ننظر لبعضنا البعض هل هناك هزة أم ذلك خيال.. أم أنها عربة تسير في الشارع بقوة.. ما أصعب لحظات الترقب والإنصات للرعب الذي يسكن أعماق الإنسان وما أصعب أن تقرر أنك ستتجاهل كل تلك الهواجس وتمارس حياتك بشكل طبيعي فتجد من حولك يدفعونك دفعا لمشاركتهم إحساسهم بالرعب والقلق.. لكننا بعد أن استقر الحال إلى حد ما بعد عدة أيام من وقوع الزلزال حاولنا تناسي الشعور بالفزع لأننا ببساطة ليس لدينا حل سوى

الاستمرار في الحياة خاصة بعدما تلقفنا جملة تركها لنا شابان جاءا في مهمة رسمية لمعاينة العقار.. وقالا إن البيت سليم وليس هناك ما يدعو للهرب.. عاش بداخلنا الاطمئنان لعدة أيام أخرى.. ولكن مع تسلل جيراننا أسرة تلو الأخرى خارج العمارة حيث كانت لديهم حلول أخرى لم نكن نمتلكها وجدنا أننا وحدنا بهذه العمارة بالإضافة إلى صاحبها الذي كان يتمنى أن نتركها نحن أيضا. مرة أخرى نتخلف عن سرب الهجرة.. مرة أخرى نتلفت من حولنا فلا نجد سوانا.. ما لك يا إحساس الغربة تلاحقنا وتلازمنا.. لماذا تتبعنا ولا تتركنا ننعم فترة بالاستقرار والهدوء؟ لكن شيئا بداخلنا أعلن أننا لن نهتز مع اهتزاز الحياة من حولنا.. ليس لنا حل آخر.. الآن ليس لنا إلا بعضنا.. نعم رجل وزوجه وابنتهما هم كل المجتمع.. نعم أصبحنا نحن فقط مجتمعنا نقوي بعضنا بعضا وندعم بصيصا من الأمل كان يطل من داخلنا كي نستمر.. نعم بإذن الله سنستمر.. حتى جاء اليوم الموعود.. تخطت الساعة الثانية عشرة بعد منتصف الليل كنت وقتها أشاهد التليفزيون أما أبي وأمي فقد ناما حينها سمعت طرقات خفيفة على الباب.. تسارعت دقات قلبي وخفت أن أفتحه ولا أتذكر هل فعلت أم ناديت على أبي ليفتحه لنجد أحد أبناء الجيران الذين كانوا يستكملون أمور انتقالهم إلى شقتهم الجديدة.. يقول لنا: إذا

كان معكم مفتاح الشقة الثانية "أي شقة خالتي التي كانت في الطابق الأسفل" فلتناموا فيها الليلة لأن هذه الناحية من العمارة معرضة للانهيار اليوم!! أي يوم؟! هكذا بكل بساطة؟ ثم وجدنا صاحب العمارة يؤكد لنا أن هناك لجنة أخرى جاءت لمعاينة العقار وقررت ذلك..

هل لنا اختيار؟ وهل نستطيع أن نضرب بذلك الكلام عرض الحائط وننام في سكينة وأمان؟ ما العمل؟ أين سنذهب؟ هل هناك فرصة للنقاش.. توالت على رءوسنا هذه التساؤلات سريعا.. لكننا فجأة ومن دون أي حوار فيما بيننا وجدنا أنفسنا نأخذ ما خف حمله وثقل ثمنه.. على الرغم من قلته.. وأخذنا ملابس يوم واحد ومفتاح شقة خالتي ونزلنا إليها وقررنا انتظار الصباح.

أتى الصباح في موعده لكنه لم يكن كأي صباح عهدناه من قبل.. إنه صباح الخلاص وولادة عمر جديد.. نعم، وهل كنا نتصور بعد ما قيل لنا الليلة الماضية أن في الحياة كلها مطلبا ننشده من الله سوى أن ننجو من بيت ما زال قائما على وجه الأرض وليس أنقاضا وركاما؟ هل من الممكن أن نضع تصورا للمستقبل؟ المستقبل بالنسبة لنا هو اللحظة المقبلة وليس الدقيقة المقبلة.. إذا مرت تلك اللحظة نفكر في اللحظة التي ستأتي من بعدها مع حلول الصباح كان قرارنا الذي تعاهدنا عليه بالأمس من أننا

سوف نستمر وندعم جأش بعضنا البعض.. قد أصبح قرارا نهائيا بالانسحاب من أرض المعركة التي ليس بها أحد سوانا تلى قرار الانسحاب عدة قرارات أخرى وهي أولا: اتصال إلى خالي العجوز الأعزب نخبره أننا سنحل عليه لاجئين في بيت جدي الذي يسكنه بمفرده والذي كنا نطلق عليه (البيت الكبير) وذلك حتى يأذن الله ونجد سكنا آخر.

ثانيا: يصعد أبي وأمي إلى شقتنا ليلملما ما يستطيعان للمته من المقتنيات.. وأنا أبقى وحدي في شقة خالتي حتى يجنباني أي كارثة من الممكن أن تحدث.. حتى الآن لا أسامح نفسي أنني استجبت لهما وتركتهما يلملمان محتويات الشقة وحدهما ولم يعاونهما أحد إلا الله عز وجل.

ثالثا: الاتصال بالأقارب ومنهم خالتي في البلد لاتخاذ اللازم حسبما يرونه.. وليعاوننا أحدهم في الإتيان بعربة نقل كي نضع بها محتويات حياتنا القديمة ونقلها إلى بيت جدي.. أو فلننقل إلى المجهول.... بدأ تنفيذ تلك القرارات السابقة بحلول الصباح.. وتم ما احتوته تلك القرارات بنجاح وبرعاية الله وحمايته لنا بحلول المغرب..

ومع الغروب.. غربت أيامنا الحلوة في هذا البيت الذي شهد طفولتنا المبكرة وصبانا ومراهقتنا حتى تخرجنا في الجامعة.. وزواج أختي

وولادتها لابنها الأول.. ومع الغروب غربت أيام حملت معها الكثير من الذكريات لمعركة الحياة بشجونها وآلامها وصراعاتها.. ومع الغروب أيضا غربت كل أحلامي الهلامية الخيالية الساذجة وبدأت هجرتنا جميعا صوب حلم واحد يجمع ثلاثتنا وهو حلم "البيت" ولكن هذه المرة ليس بيتا لي نسجته من خيوط "العنكبوت".. لكنه هذه المرة بيت لنا لأبي وأمي اللذين ما كان لهما أبدًا هذا الألم.. وهذا الشعور بالانكسار كمحاربين أعزلين عادا منسحبين من ساحة المعركة، بدأ توافد الأهل علينا لمشاركتنا ومواساتنا هذا الألم في هذا اليوم الموعود.. وما إن انتهينا من وضع كل المحتويات في عربة النقل.. ثم ركبنا مع ابن خالي في سيارته.. حتى إذا ما بدأت السيارة بالتحرك التفت لأودع عمرا ذهب مع الريح.. فإذا بي أنفجر في البكاء الذي انهمر وكأنني لم أبكِ يوما في حياتي ولن أبكي مثله فيما بعد..

عند محطة اللجوء المنشودة وضعنا رحالنا ونزلت من السيارة لأجد خالي، رحمة الله عليه، في انتظارنا أمام الباب فاتحا ذراعيه.. كنت ما زلت أبكي حين استقبلت ذراعيه بجسد خاوٍ بليد انتزعت منه الروح وتاهت وتبعثرت في مكان ما مع محتويات حياتنا القديمة التي استقر جزء منها في الطابق الثاني من البيت.. وجزء في الطابق الأول والباقي لا

يزال في عربة النقل في طريقه لمكان ما.. دخلت إلى صالة "البيت الكبير" وجلست أتتبع صعود المحتويات لتجميعها في حيز من الطابق الثاني للبيت وفي هذه الأثناء مر بخاطري حلم غريب كنت قد رأيته بالمنام قبل أسبوع واحد من وقوع الزلزال.. فقد حلمت بأنني مت، ومع ذلك كنت أقف خلف أبي وأمي أرقبهما وهما يضعانني في تابوت يحيطانه من الداخل بالورود ويتمتمان ببعض آيات القرآن الكريم وأنا من خلفهما أبكي بهدوء على هذه الفتاة المسجاة أمامهما والتي هي أنا.. ثم نظر إلي أبي وأمي وكأنهما يعتبان على أنني أبكي، فقلت لهما هامسة: قد كانت صغيرة ثم تركتهما وذهبت إلى الحمام الذي كان في الحلم حمام البيت الكبير وكنت أغسل يدي ثم ناديت عليهما بقولي ألا يجب أن نخبر أهل البلد ليستعدوا لاستقبال الجثة.. وهنا أفقت من الحلم.. وانتبهت لأجد أن محتويات حياتنا القديمة قد فرغت بأكملها تقريبا ثم ذهبت مع شقيقتي للمبيت عندها كنت قد أصبحت في حالة أفضل وبدأت أتكلم وأضحك لكن البكاء كان يعاودني على فترات متقاربة.. ولكن ولله الحمد مر اليوم بسلام وذهبت إلى النوم وأنا على يقين بأن الله معنا في كل مكان نذهب إليه.. وسيزيل عنا هذا الهم والحزن يوما ما..

أصبح الأمر إذًا أمرا واقعا وبدأنا نمارس حياتنا الجديدة

كلاجئين.. لم يكن الوقت والزمن الذي نعيشه في صالحنا أبدا.. ولو كان لنا حق اختيار الوقت ما اخترنا هذا التوقيت الصعب لدخول تلك المعركة التي فرضت علينا من جديد فالأجواء المحيطة بنا كانت تنم عن حالة عامة من الهزيمة.. تصدعات وشروخ أصابت كل شيء لم يتسبب في هذه الحالة زلزال أكتوبر 1992 فقط، ولكن كان قد سبقه زلزال أشمل وأعم أصاب المنطقة العربية بأسرها وأصابت تداعياته كل ركن وزاوية من زوايا الوطن العربي من المحيط إلى الخليج ولكن الأثر الواضح ظهر بقوة في جنبات الدول التي تئن تحت وطأة الفقر والضعف.. مثل مصر التي بدأ حالها يتراجع يوما بعد يوم.. كان هذا الزلزال الذي أعنيه هو حرب الخليج الأولى، أي الحرب التي صممت أحداثها وكتب السيناريو الخاص بها بحرفية شديدة ونفذ بتقنية عالية كانت بدايتها يوم 2 أغسطس عام 1990 عندما اجتاح صدام حسين الكويت واعتبرها المحافظة التاسعة عشرة للعراق.. وعلى طريقة الأفلام الهوليوودية ووسط التخبط العربي العام الذي ظهرت آثاره واضحة على الشعوب العربية ذاتها حتى صرنا نرى أنه يجب على أمريكا أن تفعل شيئا إزاء هذا الموقف الكارثي.. وهنا كانت "الطبخة" قد استوت تماما وأصبح العالم مهيأ لتنفيذ وإنهاء السيناريو المحكم.. وكانت الضربة القاصمة التي أصابت مجتمعنا العربي

بكل تراثه ومبادئه وعقائده في مقتـل وبـدأت الحـرب علـى العـراق والـتي سميـت وقتهـا "حـرب التحريـر"، وذلـك في ينـاير 1991 وللأسـف بمشاركة جيوش عربية مثل مصر والسعودية وبمباركتنـا نحـن الـشعوب العربية على أساس أن الورطة التي نحن بصددها أكبر بكثير ممـا نعتقـده ونتمسك به.. ثم انتهت الحرب بعد بضعة أشهر بعودة الكويت إلى أهلها وعدم عـودة القـوات الأمريكيـة إلى بلادهـا أي اكتمـل الـسيناريو المحكـم باحتلال أمريكي لكـل ميـاه الخلـيج العربـي، بحجـة أنهـا تـشكل مظلـة حماية لدول الخليج الصغيرة مـن تهديـد صـدام حـسين المتكـرر، انتهـت الحرب.. هكذا قالوا لنا لكنها في الحقيقة كانت قد بـدأت، ومـع بـدايتها رسمت أبعـادا جديـدة للمنطقـة وبـذرت بـذورا شـيطانية داخـل الأوطـان العربية.. كان أهمها إعادة تقييم وتشكيل قوانين أخلاقيـة جديـدة بـدأت تنمو وتترعرع في سرعة فائقة بـين أفـراد الـشعوب العربيـة.. قـيم أصـبح "الشك" فيها سياجا لكل العلاقات الإنسانية حتى بين الإخوة.. بـل ربمـا بـين "الإخـوة" تحديـدا.. خاصـة إذا كانـت تربـة خـصبة قوامهـا الفقـر والتخلف تعرفت في وقت قريب على القيمة "المادية" كمعيار باطش لـزمن جديد.. وفي مصر زاد مـن سـعار الفقـر عـودة العـاملين بالكويـت والعـراق فمنهم مـن فقـد "تحويـشة العمـر" في البلـدين المكـسورين وعـاد إلى وطنـه

يبحث عن طوق نجاة ومنهم من عـاد بتلـك التحويـشة ليقـرر البقـاء بـين أحضان الوطن ليبدأ حياة جديدة.. ولكن مع عودة كليهما ومع قيام الحرب ونهايتها واشتعال أسـعار الـنفط اشـتعلت أيـضا الأسـعار في مـصر بـشكل فاحش، خاصـة في قطـاع العقـارات والأراضـي والبنـاء.. ثـم جـاء زلزالنـا الصغير ذو الخمس درجات من مقياس ريختر ليزيد الطين بلـة.. ونـزداد نحن إحساسا بالضياع، خاصة أن أغلب ما استطاع أبـي وأمـي أن يـدخراه على مدى حياتهما الوظيفية قد ذهب على تجهيز شقيقتي وزواجهـا.. أي بحر متلاطم قذفنا إليه من حيث لا ندري، ترى هل نستطيع أن نقاوم تلك الأمواج العاتية وننجو منها؟ أم ننتظر العناية الإلهية وهي وحـدها بكـل تأكيد القادرة على إنقاذنا؟ انطلقت رحلة البحـث عـن شـقة مـن محطـتين رئيـستين؛ أولهمـا بيـت جـدي في إحـدى محافظـات مـصر القريبـة مـن القاهرة، وثانيهما بيت عمي في أحد أحياء القاهرة الراقية.. وبدأنا نـسأل كل من نعرفهم، بل أصبح الأقـارب والمعـارف يـسألون لنـا.. عـدنا لحينـا القديم وبعد أن كنا نتمنى أن نرحل عنه إلى حي أرقـى أصـبحنا نبحـث في حواريه وأزقته لتتناسب مع ظروفنا المادية وعلى الـرغم مـن ذلـك لم نجـد وإذا وجدنا فهي أغلى مما كنا نتصور.. وأسوأ مما كنا نتخيل.. ثـم وسـعنا دائرة البحث في مناطق أشمل وأعم.. ساعدنا في ذلك أولاد عمي الذين كانوا

قد استقروا في القاهرة ولكن أباهم، أي عمي، كان لا يزال بالخارج وكان يتابع من بعيد تلك الأحداث ويحاول مساعدتنا قدر ما يستطيع، وتولى ابنه الطبيب الشاب أمر اصطحابنا بسيارتهم إلى أي مكان نسمع عن وجود شقة به تناسبنا.. ذهبنا إلى مناطق جديدة لكنها بعيدة ظنا منا أن بعدها سيجعلها أرخص.. لكنها بالنسبة لنا ظلت بعيدة أكثر مما ينبغي، حيث إنها أضافت مطلبا آخر إلى مطلب الشقة وهو السيارة حتى نستطيع التنقل من المدينة وإليها..

استمرت رحلة البحث.. وخلال هذه الرحلة تكشف لنا الوجه القبيح للمجتمع المصري الذي تعرى أمامنا فجأة وكأن وقوع الزلزال أسقط كل الأقنعة وكشف ما تراكم من تشوهات أفرزتها السنوات السابقة.. كان آخرها تلك الحرب القذرة على المنطقة.. فمثلا يذهب أبي وابن عمي إلى أحد الأشخاص الذين تربطهم بنا صلة قرابة لكي يطلب منهم تأجير شقة ضمن أكثر من شقة يمتلكونها فإذا بزوجته تعلن: أن هذه الشقق تحجزها لأبنائها.. لكن إذا كان "الدكتور" أي ابن عمي يريدها فلا مانع، ذلك لأن لها ابنة شابة ربما كانت تريد أن تفرضها على ابن عمي مقابل هذه الشقة على الرغم من أنها تعرف جيدا أن ابن عمي خاطب لإحدى الفتيات ويستعد للزواج قريبا.. وعلى الرغم من أنها أيضا تعرفنا جيدا وتعرف

الحالة التي نحن عليها.. أيضا نذهب لنرى إحدى الشقق ومعنا "واسطة".. نتفاوض مع صاحبها وعلى الرغم من أنها كانت غالية الثمن بالنسبة لنا وتحتاج إلى مبلغ آخر ليتم تشطيبها.. فإننا قررنا وبعد تحايل على أبي أن نأخذها.. فعدنا لصاحب العمارة بعد أقل من ساعة فقط من نزولنا من عنده فإذا به يرفع السعر أكثر بكثير من المبلغ الذي تفاوضنا عليه.. متعللا بأن الشقة التي رأيناها وتفاوضنا عليها كانت مبيعة وأن السعر الذي يطرحه الآن هو سعر الشقة المتاحة!! أتذكر أيضا حين ذهبنا لنرى شقة للإيجار وكان سعرها مغريا جدا حيث إنها تقرب من المنطقة التي يسكن فيها عمي.. ذهبنا إلى العمارة المزعومة وسألنا البواب على الشقة فقال باستهجان من قال لكم إن هنا شقة للإيجار.. فقلنا له: سمعنا، فقال: إن صاحب العمارة "نصاب" يعرض الشقة للإيجار والعمارة صدر لها قرار بالإزالة لأنها آيلة للسقوط!! أي هم هذا الذي يضحكنا حتى البكاء؟!! ولا أنسى أبدًا يوما ذهبنا فيه لنرى شقة عن طريق إعلان في الجريدة.. وصلنا إلى العمارة المقصودة وكان معنا ابن عمي أيضا.. وحين هممنا بصعود السلم إذا بنا نسمع صراخا شديدا يصدر من أعلى وكان الصراخ لفتاة شابة فيما بدا.. ويشترك في وصلة الصراخ صوت صراخ آخر لامرأة يبدو من صوتها أنها أكبر سنا ولكن صراخ السيدة الأكبر لم يكن

صراخ استغاثة مثل صراخ الفتاة وإنما كان صوت امرأة تنهر تلك الفتاة وتتعارك معها وتضربها بكل قوة وكأنها تحاول أن تستنطقها باسم شخص ما، وما إن سمعنا هذه الوصلة من الصراخ حتى تسمرنا على السلم ونحن نقف تصاعديا على درجاته.. ثم قررنا ومن دون أي مناقشة أن نتجه تنازليا درجات السلم في اتجاه باب العمارة.. لكن ابن عمي قرر كعادته المقتحمة أن يصعد مرة أخرى حتى نحصل على إجابة جئنا من أجلها.. بالفعل صعد ابن عمي في حذر والصراخ ما زال مستمرا فأخذنا ننادي عليه ونناشده أن ينزل.. وبالفعل هم بالنزول فإذا بالسيدة تفتح الباب وتصورنا أن السيدة ستصرخ في وجهنا وربما تقذفنا بأي شيء في يدها.. لكنها حين سألها ابن عمي عن الإعلان الخاص بالشقة قالت بهدوء: نعم.. لحظة واحدة، ثم دخلت وأحضرت مفتاح الشقة المقصودة والتي تقع أسفل شقتها.. نزلت السيدة وهي تتمتم ببعض الألفاظ التي تلعن "البنات وخلفها" ففهمنا أن الفتاة التي كانت تصرخ يبدو أنها ابنتها.. كانت السيدة تتمتع ببنية قوية وقامة هيفاء وحضور يثير في النفس التوتر والقلق.. باختصار كان ينطبق عليها وصف امرأة "قوية ومفترية" لكنها حين قابلتنا كان وجهها مبتسما.. لبقة الحديث تتصرف وكأنها عائدة من رحلة استجمام وليس من معركة حامية الوطيس و"علقة

ساخنة" ما زالت يداها تنتفض من أثرها.. ثم نظرت إلى ابن عمي نظرة أنثى محنكة وقالت له: أأنت الذي تريد الشقة؟ فأجابها بالنفي وروى لها مقصدنا بالضبط وهنا أيضا التفتت إلينا ورمقتنا بنظرة ذات دلالة.. لكنها كانت للحقيقة حلوة اللسان فقالت ما معناه إن شاء الله يكون لكم نصيب معنا وشيء من هذا القبيل.. والحقيقة أن الشقة كانت جميلة وكنت حين أتجول فيها أتمنى أن تصبح لنا على الرغم من خوفي من هذه السيدة.. عدنا إلى بيت عمي لنتناقش في الأمر فإذا بجرس الهاتف يرن وكانت السيدة على الطرف الآخر.. تحدثت إلى ابن عمي وأخبرته أن الشقة ملك لأخيها وأنه هو الذي سيحدد السعر على الرغم من أن السعر كان بالفعل مكتوبا بالجريدة.. ثم انتظرنا فترة ليرن جرس الهاتف من جديد فكان صاحب الشقة شقيق تلك السيدة.. ليقول لنا إنه يأسف لأن الجريدة أخطأت في كتابة الرقم المطلوب وأنه يجب علينا أن نضيف صفرا آخر أمام الرقم المكتوب بالجريدة.. بالطبع لم يكن معنا هذا الصفر إن لم نكن قد شعرنا أننا الصفر ذاته ولكن على اليسار من المبلغ ومن الدنيا بأسرها، عدنا أدراجنا إلى المحطة الأولى للجوئنا وهي بيت جدي ونحن نحمل خفي حنين معنا.. ترى كيف يكون حالك حين يلفك الإحباط والإحساس بالضياع بعد تعرفك على واقع لم تكن تعلم عنه شيئا.. وأيضا

نفسك التي لم تواجهها من قبل وهي في أحرج المواقف التي من الممكن أن يتعرض لها إنسان ثم كيف يكون حالك وأنت على هذه الحالة فيعرض عليك أحدهم فيلا في أحد أحياء القاهرة الراقية ويقدر سعرها في هذا الوقت بخمسة ملايين جنيه.. ما هذا الخبل؟ كيف يكون ذلك الوهم الأقرب إلى الجنون؟

كان هذا الوهم أقرب إلى الحقيقة بكيفية مشروعة جدًّا.. بل ومقربة إلى الله وعلى سنة رسوله الكريم أيضا.. حيث جاء خالي ليعرض علي شخصا يريد الزواج بواحدة من أقاربه أي "خالي" وكنت قد تحدثت مع هذا الشخص مرة واحدة مصادفة من خلال الهاتف.. وربما يكون قد سأل خالي عني أو شيء.. المهم كان هذا الرجل مطلقا.. يكبرني بما يقرب من عشرين عاما وكان مهندسا لكنه ورث تجارة والده بحي الأزهر وكان يعمل بتلك التجارة.. وليس له سوى طفلة واحدة من زوجته الأولى.. كان وقتها عمري 24 عاما وكما ذكرت من قبل لم يكن لدي أي تصور عن فارس الأحلام.. كل ما كنت أريده أن يكون من أصل طيب وأن يكون إنسانا متدينا وعلى درجة مقاربة لي في التعليم وفقط.. وهذا ما أكده لي خالي الذي كان يعرف هذا الشخص جيدا ويعرف أباه من قبله.. ولذلك ما إن سمعت بهذا العرض حتى طرت من السعادة وتشبثت به ولأول مرة أكون

بتلك "البجاحة" وأطلب من أبي وأمي أن يوافقا على هذا العرض فكان رد أبي وأمي علي بمثابة صفعة قوية تعيدني إلى واقعنا المحبط من جديد.. قالت لي أمي: أتتزوجين رجلا يكبرك بما يقرب من عشرين عاما؟ وله طفلة.. أتريدين أن تصبحي زوجة أب؟ ومن الممكن أن تواجهي مشكلات عديدة مع زوجته الأولى.. أجننت؟ قلت لها: وهل يعجبك حالنا الآن؟ فأجابت إجابة قاطعة وهي التي تتمنى زواجي اليوم قبل غدا.. مهما يكن ومهما يصر لن أرضى لك بمثل هذه الزيجة.. أما أبي فكان كعادته هادئا.. فسألني: هل أنت جادة أم أنك تتحدثين في هذا الموضوع من قبيل المرح والتسلية؟ قلت له: أنا جادة جدًّا.. فرد علي بكل قوة وثبات ردا أخرسني.. قال لي: إن عدت لمثل هذا الحديث لن أتكلم معك أبدًا وستكون قطيعة بيني وبينك وانتهى هذا الحلم قبل أن يبدأ.. وصحوت منه على واقعي الحقيقي الذي أدركته وتعلمته ثم مارسته يوما بعد يوم منذ تاريخ 12 أكتوبر 1992 تاريخ حدوث الزلزال الأكثر تأثيرا في الحياة المصرية.

لكن علي أن أعترف الآن وقبل أن أسترسل في كتابة باقي الذكريات أن أبي وأمي كانا على حق حين رفضا عرض الزواج من هذا الرجل – صاحب الفيلا ذات الخمسة ملايين من الجنيهات – سواء كان ذلك

بإرادتهما أو على غير إرادة منهما.. فهما كانا ولا يزالان والحمد لله فيهما "شيء لله" كما يقال، فقد علمنا بعد مرور السنوات أن هذا الرجل قد اشتدت عليه المشكلات بل والمعارك بينه وبين أشقائه من أجل الميراث الذي تركه لهم أبوهم السبب الذي انتهى بهم آخر الأمر إلى أن أدخلوه السجن مما أحدث عنده حسبما سمعنا ما يشبه اللوثة العقلية.. فحمدت الله على نعمة أب وأم في مثل ما أعطاني وأكرمني بهما.. ومن قبل حمدت الله على إرادته وحكمته التي شملتنا دائما في كل المواقف.. لكن لأن الإنسان عجول وجهول.. فإنني كنت دائما ما أعجب من أمر أبي وأمي وطريقة اختيارهما لأسلوب حياتنا واتجاههما دائما للحد الأدنى من المتاح والموجود من حولنا فكنت دائما ما أردد لهما أغنية "معشوقتي" فيروز التي تقول في جزء منها:

"مش لنا الزينة وبيارق المدينة

نحنا لنا ورق الخريف

إل عم بيذهب مراكب الرصيف"..

ففي الحقيقة أنني كنت أشعر دائما بأن هذه الأبيات تنطبق علينا إلى حد كبير في كثير مما مر بنا من أحداث.. فحين كان أبي وأمي يرفضان

العرض السابق ذكره وجدتهما مرحبين بأكثر من عرض يفتقر كثيرًا لأي مغريات سوى أن المتقدم شاب في مقتبل العمر.. ولكن للأسف لم تكن تعرض علي هذه العروض بأسلوب يخص الآدميين وإنما أي شيء آخر.. فقد جاءت عن طريق خالة لي تعيش في نفس البلدة وبجوار بيت جدي الذي نقيم به كلاجئين.. ويبدو أنها اعتبرتني قطعة من قطع أثاثنا المتراكم من جراء الزلزال.. فكانت كل عدة أيام نجدها تصطحب معها إحدى السيدات من جيرانها أو صديقاتها اللاتي لهن أبناء في سن الزواج لتطلعهن على هذه "الفرجة" التي هي أنا.. وطبعا لأننا نعيش في بيت جدي فمن المعتاد أن تأتي بصفة مستمرة وبالطبع لا نستطيع أن نمنعها أو نطلب منها الاستئذان قبل المجيء.. ولأنها على قدر ضئيل من التعليم فإنها لن تتفهم ما أستاء منه خاصة أن خالتي ومن هن مثلها من النسوة اللاتي يتمتعن بطيبة وسذاجة وقدر من الجهل وحسن النية معا لا يتصورن أبدًا أن للبنت الحق في ألا يحدث معها ذلك التصرف أو أن ذلك الأمر يتنافى مع أبسط قواعد الكرامة الإنسانية.. لأنهن ربما لم يسمعن بهذه العبارة أصلا.. في اعتقادي أن مثل هذه النوعية من النساء على الرغم من طيبتهن ينطبق عليهن وصف الله تعالى في كتابه الكريم بـ"الأخسرين أعمالا" لأنهن ببساطة قد ضل سعيهن في الحياة الدنيا وهن يحسبن أنهن

يحسن صنعا.. ربما تصورت وقتها أنني يجب أن آخذ المسألة ببساطة حتى لا أتهم بالتعالي والعجرفة.. لكنني شيئا فشيئا كرهت تلك الطريقة وأولئك النسوة كرها شديدا.. وربما كان ذلك ما جعلني أضع بعض التصورات لعريس المستقبل وكانت أهم تلك التصورات أن تكون أمه متعلمة.. لكن دائما تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.. فقد قبلت ذات مرة وبعد خناقة شديدة مع أمي أن أستجيب لتلك الطريقة الحقيرة التي تمارسها خالتي ومن معها من النسوة فقط لأنني علمت أن تلك السيدة الآتية مع خالتي تعمل كناظرة مدرسة ولذلك تصورت أن الأمر سيكون مختلفا، ولكن جاء الأمر على عكس ما تمنيت.. فالسيدة لم تنطبق عليها هيئة ناظرة ولا غيرها.. فقد كانت ترتدي كعادة نساء البلدة الجلباب الأسود والطرحة وبالطبع كان الذهب يلتف حول معصميها ويتأرجح جيئة وذهابا فوق صدرها وظلت طيلة الوقت موجهة نظراتها نحوي وكأنها "تقلبني" من أعلى رأسي حتى أخمص قدمي ومن دون أن تنطق بكلمة.. وأخيرا ذهبت ولم تعد.. وذهبت معها خالتي لكنها عادت بالطبع ومعها سيدة أخرى وكان ذلك سببا في خناقات عديدة بيني وبين والدتي.. إلى أن جاءت خالتي ذات يوم وعرضت علينا "عريسا" آخر ولكن هذه المرة ويا للعجب جاءت بمفردها حتى تطلعنا على مواصفته وتأخذ

منا الإذن بالمجيء!! مما جعلني أتقبل الفكرة، خاصة أن كل المواصفات تقريبا كما أتمنى فوالدة العريس ليست متعلمة فقط وإنما كانت الصديقة المقربة لوالدتي في صباهما وطيلة سنوات دراستهما.. والأب كان حسبما أتذكر محاميا محترما.. أما العريس نفسه فكان طبيبا شابا ربما لا يزال في مقتبل حياته العملية لكنه يبشر بالخير.. وهنا حان الوقت لكي أردد الأغنية ذاتها من جديد "مش لنا الزينة وبيارق المدينة.." لماذا؟ لأننا انتظرنا خالتي لتأتي وتخبرنا بموعد الزيارة إلا أننا فوجئنا بابنتها تأتي لنا ليلا وقد بدا على وجهها الانزعاج الشديد وكأن أمرا جللا قد حدث.. وقالت لنا: بصراحة أنا لا أحبذ أبدًا هذا العريس فأنا أعرفه جيدا وأرى أنه لا يصلح.. و.. و.. والحقيقة أنني لدي عريس آخر هو زميل لي في المدرسة.. وأخذت تعدد صفات ذلك العريس الجديد التي لم يخلق الله مثلها في بشر.. فترى ماذا بإمكاني أن أقول لها فما كان مني إلا أن رفضت ذلك العريس الجديد وذلك الأسلوب الغبي الذي يجعلنا ألعوبة في أيدي من يعتقد أنه يسعى في الخير ويعيدني من جديد كطفلة تقف أمام "الفترينات" متشبثة بشيء ما باكية تحاول إقناع والديها بما تريده بينما هما يتعللان لها بأن هذا الشيء "وحش" وأنهما سوف يشتريان لها ما هو أحسن منه في المرة المقبلة..

على أن هذه المرة لم أعرف إن كانت ابنة خالتي "فيها شيء لله" أم أن الله جعلها سببا فقط ليغلب النصيب والقدر فبعد مرور السنوات عرفت هذا الشاب الذي قالت عنه إنه سيئ.. و.. و.. ولكن كطبيب نستعين به دائما على مر عدة سنوات.. وبعد أن أصبح زوجا وأبا لثلاثة أبناء فكان عكس ما ذكرته عنه تماما.. على أن الأغنية عادت لتكرر مرارا من جديد بداخلي وذلك حينما جاءتنا خالتي التي كانت تسكن في الطابق الأسفل من بيتنا الذي تركناه بأمر الزلزال لتزورنا في بيت جدي وقد بدت منزعجة عندما علمت أننا نبحث عن شقة بجوار الحي الذي يسكنه عمي وكأنه محرم علينا أن نبحث ونتطلع إلى شيء أفضل مما نحن عليه الآن كلاجئين.. نجوب يوميا شوارع مصر وأحياءها منذ لحظة الخروج القاسية من بيتنا نبحث في كل مكان وفي كل المستويات دون أن يعترض أحد أو يعرض علينا أحد حلا آخر.. وظلت تنذرنا بعواقب الأمور من جراء سكننا في هذا الحي بالذات وكأن الله حرم سكناه أو كأنه الجحيم وإذا بها تعرض علينا ولأول مرة شقة في بيتها هناك في قريتنا وهي شقة ما زالت على الطوب الأحمر تحتاج إلى الكثير من الوقت والمال، ولذلك كان هذا الحل مستبعدا تماما منها ومنا حينما فصل بيننا الزلزال المباغت الذي تعرضت له مصر في أكتوبر 1992.. ووقتها فهمنا تماما أن بيتها في

قريتنا لن يسعنا معا.. لذلك تمنيت ألا يقبل أبي وأمي عرضها هذا حتى لو طال بنا الانتظار في محطة اللجوء.. وفي هذه الأثناء علمنا أن قرارا رسميا صدر من الحي الذي كنا نسكن فيه يقضي بأن ينكس البيت الذي تركناه، بمعنى أن تهدم الشقتان العلويتان اللتان ضمنهما شقتنا.. إذًا صمد البيت الذي قالوا لنا إنه ربما ينهار ليلة أن تركناه ليهدم بأيدي عمال الحي وعرفنا فيما بعد أنه استعصى عليهم حين كانوا يهدمونه ولكن بموجب هذا القرار أصبح لدينا الحق في المطالبة بشقة تعويضا عن الشقة المهدومة.. ولكن لأننا نعلم أن يوم الحكومة بسنة كما كنا نعلم أن نوعية تلك الشقق ربما لا تناسبنا.. فقد استمرت عملية البحث عن شقة وفي الوقت نفسه علينا أن نتخذ الإجراءات التي تعطينا الحق في الحصول على شقة وقد علمنا أنه يجب علينا أن نذهب لنسجل أسماءنا في أماكن تجمع اللاجئين والمشردين من جراء الزلزال، فذهبت أنا وأبي وكان الوقت ليلا حيث كنا في الشتاء دخلنا المكان المزعوم وكان الظلام يغطي المكان ويبدو أننا كنا الوحيدين هناك، ثم ظهر شخص يبدو أنه المسئول عن المكان.. عرفنا منه أنه يجب علينا أن نأتي بين الحين والآخر حتى نثبت أننا نقيم في هذا المكان، وليس لنا مكان آخر حتى يحق لنا أن نحصل على شقة!! وبالطبع كعادة كل الأمور في بلدنا يجب على المسئول

تسديد الخانات.. حتى يكون في "السليم" فقدم لنا دفترا كبيرا يشبه دفتر الحضور والانصراف، فوقع أبي في هذا الدفتر ثم ذهب الرجل وعاد لنا بحقيبة بلاستيكية أعطاها لنا باعتبارنا نقيم في هذا المكان.. فأخذناها وعدنا إلى مقر لجوئنا الحقيقي حيث بيت جدي وهناك فتحنا تلك الحقيبة البلاستيكية فوجدنا بعض علب الأغذية المحفوظة وبعض الملابس رديئة الصنع والخامة.. نظرنا إلى محتويات الحقيبة وضحكنا فقد تأكد لنا أننا رسميا وبأمر الحكومة أننا قد أصبحنا لاجئين.. وهذا هو الدليل من ناحية أخرى ظهرت لنا شقة جديدة أيضا في حي "الزينة وبيارق المدينة" التي حذرتنا منه خالتي وقالت عنه فيروز إنه ليس لنا.. ولكن ليس لنا من الأمر بد.. بما أنه لاحت لنا فرصة فيجب علينا أن نتبعها عل الله يقسم لنا بشيء لم نكن نتوقعه أو نحلم به.

ذهبنا إلى الشقة التي سمعنا عنها.. كانت في منطقة هادئة جدا في آخر حدود الحي الذي يعيش به عمي وأسرته ويفصل بينه وبين أحد الأحياء الشعبية مساحة تشكل محطة لحافلات النقل العام.. كانت شقة أشبه بالمساكن الشعبية لكنها تتبع إحدى شركات القطاع الخاص العقارية.. كانت شقة صغيرة لا تزيد على 80 مترا ما زالت تحتاج إلى "تشطيب" كامل تحتاج لأن نضع فيها كل ما نملك وأن نقترض الباقي

حتى تصبح شقة يصلح العيش بها لكنها بالنسبة لي كانت الخلاص وطوق النجاة.. عدنا إلى بيت عمي بعدما رأينا الشقة لنتفاهم في الأمر فوجدنا أبي رافضا لها نظرا لما تحتاجه من مال وجهد.. أما أنا فقد أردت بأي شكل أن نأخذها.. لكن عجلة أوهامي ما لبثت أن اصطدمت بقول أبي لي: أنت لا تعلمين شيئا إنك واهمة.. أنت فقط تريدين هذه الشقة لتقولي بأنك تسكنين ذلك الحي الراقي.. وقتها شعرت كما لو أنه لطمني بقسوة شديدة.. وقلت له وما العيب في ذلك؟ أوليس من حقي أن أحلم بمكان أفضل.. انسحبت من أمامه وأنا أبكي كنت وقتها أتساءل في نفسي لماذا يجب علينا أن نرى أنفسنا في أحقر مكان؟ وأن نختار أدنى شيء مما هو متاح أمامنا.. لماذا يذكرني أبي دائما بأننا أضأل من أن نتمنى.. لماذا؟ حين كنت أبكي كنت أحس أن الدنيا كلها تضيق من حولي وتزداد ظلمة.. الأمر الذي جعل أبي يفكر خاصة بعدما حاولت أمي إقناعه ومعها زوجة عمي وأولاده.. فإذا بي أتلقف موافقته وكأنه انتشلني من الغرق.. لكنني قلت له: كيف؟ فأنا لا أحب أبدًا أن يكون الأمر فوق طاقته.. خاصة أنني أعرف أنني نقطة ضعفه ولا أحب أن أستغل تلك النقطة لصالحي فوضح لي أنه قام مع ابن عمي بحساب التكاليف الخاصة بالشراء والتشطيب فوجدا أن المسألة ربما تحتاج لاقتراض مبلغ صغير من أسرة عمي سنقوم بسداده في أقرب وقت.. وعلى ذلك كان الاتفاق بأن نذهب في صباح اليوم التالي بسحب مبلغ مالي من أحد المصارف القريبة التي يضع فيها عمي مدخراته

ومن هناك نذهب إلى موقع الشقة لنتمم الشراء.. وبالفعل جاء الصباح وأنا في غاية السعادة وقمنا بما عزمنا عليه.. وذهبنا إلى الشقة وأعدنا رؤيتها من جديد.. ثم بقيت أنا وأمي بالسيارة وذهب أبي وابن عمي للتفاوض مع المسئول عن البيع فإذا بنا نلحظ علامات الضيق على وجه أبي.. طال الوقت ونحن ننتظر ونشعر بأن هناك أخذا وردا ومحاولات تفاوض وإقناع تدور حتى عاد أبي وهو يسب ويلعن ومعه ابن عمي صامتا!! ثم بعد قليل تكلما لنعرف أن الرجل رفع السعر من الأمس إلى اليوم فقط نحو ثلاثة آلاف جنيه.. أي زمن نعيش فيه؟ ولماذا كلما خطونا خطوة نكتشف أننا نتجه إلى سراب؟ خيم الصمت علينا وفقدت في هذه الساعة كل الأحرف والكلمات التي أستطيع أن أصنع منها جملة تعبر عما يدور بمخيلتي.. بل ربما انقطعت الكهرباء عن عقلي لدقائق.. لا أعرف ماذا علي أن أحس في هذه اللحظة.. لكنني بالطبع كنت قد فقدت السيطرة تماما على إرادتي وأعطيتها طواعية لأبي الذي سيقرر ماذا نحن فاعلون؟ وبالطبع اتجه رأي أبي إلى أن نذهب إلى خالتي لنعلن لها استسلامنا لما قرره القدر وأملاه علينا ونقول لها: جئنا إلى بابك بعدما سدت كل الأبواب في وجوهنا.. الآن فقط أحسست بقوة بالتعبير الذي طالما سمعته من قبل وهو "مكسور القلب" كنت وقتها أنا ذلك الشخص وربما كان أبي أيضا.. وإن كنت قد شعرت أن يوم تركنا لبيتنا مهاجرين بأننا قد انسحبنا من معركة غير متكافئة فإنني في هذا اليوم شعرت بمعنى الهزيمة بصدق.. وكأن الحلم

الذي حلمته قبل الزلزال بأسبوع يتحقق بكل ما فيه فقد شعرت بأنني جثة هامدة وأنني سأذهب إلى البلد لأدفن لكنني كنت مستسلمة تماما لقضاء الله..

عذرا لكل مكسوري القلب فأنا أعلم بالتأكيد أن الكثيرين ممن ينطبق عليهم هذا التعبير بحق هم أتعس وأقسى مني حالا في تلك اللحظة وربما يرون أن هناك بونا شاسعا بين حالي وحالهم.. وعذرا لك يا أبي وعذرا لقريتنا تلك القرية التي أحببتها فيك يا أبي وانتميت إليها قدر انتمائي إليك.. لكنني الآن غير قادرة على تزييف الإحساس الذي أحسه لحظة انكسارنا أمام رفض تلك المدينة "القاهرة" لنا هذه المدينة التي أعشقها حتى أهوى معها إلى أشد المستويات انحدارا فألعنها وأسبها كل يوم.. لكنني أعود لأطلب منها الصفح وأستعطفها من جديد لتجود علينا بنظرة حب ورضا.. وأجدني حينها لا أرى فيها إلا أشد اللحظات ألقا وبريقا.. ولا أستحضر منها إلا نيلها ليلا حين تتلألأ فيه الأنوار المتراقصة التي تسرق البصر وترده في لحظات خاطفة فتهيج أحاسيس الشجن والعشق فتحلق في عالم من الخيال.. لتجد نفسك مدفوعا اندفاعا للغناء أو على الأقل الاستمتاع بأي نغمة موسيقية قد تقتنصها في هذه اللحظة ولو من سيارة مسرعة تعبر كوبري "قصر النيل" فإذا بك قد اصطحبت معك تلك النغمة حيث بيتك وربما تنام وأنت ما زلت تتمتم بها في سرك على الرغم من كل هذا الصخب والضجر الذي لحق بك جراء

مواصلاتها العامة التي أقلتك إلى بيتك، ويبقى في خلدك وذاكرتك رائحة هوائها المحيط بالنيل.. تلك الرائحة التي تشبعت ببخار ماء النيل واختلطت برائحة الفل رزق الباعة الجائلين على جميع المراسي النيلية متجهين به صوب العاشقين الذين ما زالوا يحلقون ويسبحون مع الوجه الجميل للقاهرة ثم ذكرياتك التي لا تنسى عن ليالي رمضان.. والتي تشترك فيها أكثر شوارعها رقيا واتساعا إلى أكثر حواريها وأزقتها ضيقا وفقرا.. إنها تعشق السهر ينتظر أهلها جميعا السحور معا فتعج مقاهيها ومحلاتها ومواصلاتها بالناس حتى يطلع الفجر.. ثم يعود الضجيج من جديد لينتظر أذان المغرب فتهدأ شوارعها في لحظة هدوء شديد.. كل هذه الذكريات لا أحملها سوى لمدينة واحدة لم أعرف غيرها هي القاهرة.. نعم ربما أحمل ذكريات لا أحبها لكني إلى هذه السن لم أملها أو أكتفِ منها بذلك القدر الذي بقي في مخيلتي ونفسي عنها.. فكيف أتركها الآن لمكان آخر لا أحمل له سوى ذكريات أبي عنه وبعضا مما تبقى لي من ذكريات الطفولة التي كانت في أغلبها كئيبة ومخيفة حيث الليل وظلمته وكل تلك الأصوات والحشرات التي يوقظها الليل!! لكنني الآن يجب علي قبول الواقع الجديد وإعادة صياغة الصور المخبأة في الذاكرة عن قريتنا إلى صور ملونة جديدة تنطق بالفرح حتى نستطيع الحياة فيها بكل رضا.. سافر أبي إلى البلد ليتمم موضوع الشقة التي عرفنا أنها ستأخذ أكثر من شهر ليتم تشطيبها ليس لنا وإنما لخالتي التي قررت أن تصعد هي في الشقة

الجديدة بينما نأخذ نحن شقتها القديمة!! ومع ذلك وافق أبي بكل رضا وعاد ليبشرني بأنهم ينتظرونني هناك ويتطلعون إلى اليوم الذي أصل فيه إلى بلدنا لأعيش بينهم.. وكما بدأت أتعود رسمت الابتسامة الزائفة على وجهي من جديد..

لم يلبث أبي أن عاد من السفر ودخل ليرتاح من عنائه حتى دق جرس الهاتف، كنا وقتها في بيت عمي.. كانت المتحدثة على الهاتف خالتي الصغرى التي بعد أن عادت هي الأخرى من الخليج استقرت هي وأسرتها في مدينة إقليمية قريبة من القاهرة.. انتهت أمي من المكالمة وجاءت على استحياء لتنقل لأبي ما دار في المكالمة لتقل له إن خالتي تلك تخبرنا أن هناك شقة لديهم في إحدى العمارات التي يملكها زوجها ستخلى قريبا وهي جاهزة للسكن فورا.. كانت أمي تحسب حساب الاتفاق الذي تم منذ ساعات قليلة بين أبي وبين خالتي وشهده أهل البلد ودفع فيه أبي مبلغا من المال إزاء هذا الاتفاق فهل يعقل أن نغير كلامنا خلال ساعات.. لكن السؤال الذي طرح نفسه ساعتها وهل يعقل أن نظل شهرا آخر قابلا للتمديد نظل فيه لاجئين وأمامنا فرصة للسكن في شقة جاهزة كما تقول عنها خالتي الصغرى؟ وإنها واسعة وجميلة ولن ندفع فيها سوى قيمة الإيجار الشهري لم يطل وقت التفكير ووجدنا أنفسنا في تلك المدينة التي لا هي بالحضرية تماما ولا هي بالريفية تماما.. حل علينا الليل هناك وذهبنا إلى الشقة المقصودة وتجولنا بها فإذا بها تشبه إلى

حد كبير شقتنا القديمة وربما أحلى. إذًا على بركة الله نحن موافقون ولكن متى يتم التنفيذ؟

عندما ننهي المساومة مع المستأجر السابق.. آه.. أحسست بأن السيناريو الممل سيتكرر.. إذًا يجب ألا نضعها في الاعتبار ويجب ألا ننتظرها.. مضت عدة أيام لنجد خالتي الصغرى تتصل مرة أخرى لتخبرنا أن الساكن السابق وافق على أن يترك الشقة وأن علينا القدوم لكتابة العقد.. كيف أصدق؟ كيف أتخيل أنه من الممكن بل من الجائز جدا أن يصبح لدينا بيت للاستقرار وليس للجوء من الغد؟ بالتأكيد سيحدث ما لا نتوقعه.. لا.. لا.. لن أصدق إلا حين تطأ قدماي تلك الشقة حبست أنفاسي وأفكاري حتى يعود أبي من الشقة المزعومة التي يتممون فيها الإجراءات وإعطاء المستأجر السابق المبلغ الذي وافق عليه نظير بعض الإصلاحات التي قال إنه أتمها بالشقة، والحمد لله على أن المبلغ لم يكن كبيرا طال الوقت وطال معه احتباس الأنفاس.. ثم عاد أبي وزوج خالتي وانتظرت أن يكون هناك سباب ولعان.. إلا أن ذلك لم يحدث.. لكنني انتظرت أن يبدآ هما بالكلام.. وأخيرا نطقا فقال لي زوج خالتي "مبروك" يا لها من كلمة سحرية أتعطش لها منذ زمن بعيد.. يااااه هل هذا معقول؟ يا رب ماذا أفعل؟ كيف يكون الشكر والحمد لك على مثل ذلك الأمر.. كل ما أستطيعه الآن أن أتمتم بالحمد لله تعالى على كل شيء فما زالت أنفاسي محبوسة فقد تعودت على ذلك.. لكنني أكرر لنفسي ما بين الحين والآخر إياك والفرح.. ولا تنسي

نفسك عدنا إلى محطة لجوئنا الأولى وقد أصبح لدينا "مفتاح" بالنسبة لي كان "مفتاح الحياة" كان علينا أن نقضي الليل ولم أكن أتخيل أن يكون هذا الليل هو آخر ليل نشهده في محطة اللجوء.. فقد كان الاتفاق أن يذهب والدي في الصباح ليغير المفتاح وأن تنقل محتويات حياتنا القديمة أولا ثم بعد ذلك ننتقل إليها بعد أن تكون الشقة قد هُيئت لاستقبالنا.. لكن أمي أصرت كعادتها العملية دائما على أن نذهب جميعا بصحبة المقتنيات وأن نبدأ حياتنا الجديدة من اليوم، إذًا كانت أمي أشدنا حنينا إلى الاستقرار وإلى بيت يرد لنا كرامتنا التي تبعثرت بين زوايا بيتها الأول، لكن الآن معنى البيت الجديد يختلف.. فقد انتظرنا شهرين يراوغنا الأمل حتى أصبحنا نطارده في كل مكان وأخيرا جاء طواعية على غير توقع منا.. لتحمله أمي في صدرها وتخبئه وتسرع به قبل أن يتبدد لتمارسه وتضعه في حيز التنفيذ.. وبالطبع استجبت أنا لهذا القرار في سرعة لم أعهدها في نفسي ووجدنا أنفسنا نحمل مقتنياتنا سريعا ونرتبها سريعا وإذا بنا يحل علينا منتصف النهار في أرض جديدة وبداية جديدة في شقة جديدة.. وبالطبع لم يكن هناك أي جزء مرتب نستطيع أن نجلس عليه أو نتعامل معه لكن سعادتنا كانت أقوى من أي ترتيب أو تنظيم.. وبالطبع لم يكن هناك مجال لطهي طعام أو حتى حمله معنا فذهب أبي يستطلع المكان الجديد وهو لا يعرف فيه شيئا وعاد إلينا بما استطاع أن يجده فكان "قرطاس طعمية بايتة ومزيتة"، لكنني لا أزال أتذكر طعمها حتى الآن وأتذكر حبات الفول الصحيحة التي كنا نلوكها أثناء التهامنا لها وكأننا لم نأكل طيلة حياتنا..

بالنسبة لي كانت أشهى و"أطعم" وجبة أكلتها طيلة حياتي وما زلت أحس بالشبع حين أتذكرها.. ثم بعد أن أكلنا وامتلأت بطوننا.. وأرحنا ظهرنا على حائط الأمان الذي اشتقنا إليه.. فوجئنا بمدد كبير من الصواني المليئة بكل ما لذ وطاب كان هذا المدد من عند خالتي التي انتشلتنا من حالة اللجوء بهذه الشقة والتي تسكن قريبا منا بالفعل.. نمنا هذه الليلة على البلاط.. بالطبع كان مغطى بما استطعنا أن نعثر عليه من فرش.. لكن الليل كان قد أقبل سريعا فقد كنا في شهر ديسمبر وكانت المفاجأة التي أعدها لنا المستأجر القديم أن الشقة بلا كهرباء.. فقد أخذ معه كل شيء حتى أزرار الكهرباء وزجاج الأبواب بل وحتى أجزاء من قيشاني الحمام والتي لم يستطع أخذها حطمها على الرغم من أن المساومة التي تمت ليلة أمس كانت من أجل تلك الإصلاحات.. التي أخذ ثمنها.. لكنه في الحقيقة كان كريما إذ ترك لنا دهانات الحائط كما هي فكانت نظيفة وجديدة.. لكن ذلك لم ينل من فرحتنا التي نامت معنا تلك الليلة التي سادها الظلام التام لكن سادها أيضا الهدوء والأمان الذي أنهكنا البحث عنهما طيلة شهرين خليا.. فنمنا نوما عميقا لا يأبه بظلام أو بلاط ارتاحت أجسادنا عليه بعد طول انتظار.. وصحونا مبكرا لنبدأ صباحا جديدا ما زال يسكن بداخلي حتى الآن.. أستعيده بين الحين والآخر لألتمس فيه الإحساس بالرضا وعدم الندم أو الألم على ما فات.. فأتذكر جيدا لذة الطعام الذي بعثت به خالتي وأتذكر ضوء النهار الذي شاع في الحجرة التي كنت آكل بها والتي أصبحت من ساعتها حجرة السفرة.. بل وأتذكر جيدا رائحة السولار التي كانت تنبعث من المخبز الذي يقع

أسفل العمارة وكيف اختلطت رائحته برائحة الخبز وكيف أنني استحسنت هذه الرائحة.. ولم أكن ساعتها أفرق إن كنت أستلذ تلك الرائحة أم طعام الإفطار أم هي حالة الرضا التي احتوتني وجعلتني أشعر أنني إنسانة تولد من جديد ليس لها ماض تحزن عليه أو بسببه وإنما لها حاضر ترتضيه وربما لها مستقبل تتطلع إليه.. ولأن الخيرات أيضا لا تأتي فرادى فقد ذهب أبي في ذلك اليوم ليحصل على خطاب رسمي صادر من الحكومة يقضي بأن تخصص لنا شقة اقتصادية تعطى تعويضا عمن أصابهم الزلزال.. وعاد أبي سعيدا بهذا الخطاب ليجدنا قد أتممنا فرش وتنظيم البيت الجديد.. في هذه الأيام أخذت على عاتقي عهدا ما زلت أحاول أن أحافظ عليه حتى الآن.. وهو أنني لن أسلم نفسي للاعتراض على شيء، قد حمدت الله عليه يوما ما وعلى ذلك قررت أن آخذ برأي "صلاح جاهين" في رباعيته الجميلة التي تقول:

"انشد يا قلبي غنوتك للجمال

وارقص في صدري من اليمين للشمال

ماهوش بعيد تفضل لبكره سعيد

ده بكره فيه ألف ألف احتمال

وعجبي!!"..

أبواب وشبابيك

"أفتح الشباك ولا أقفله؟".. عبارة نطق بها لسان حال الرجل الذي ولد في قرية هادئة صغيرة كانت هي عالمه الكبير وما إن تفتحت عيناه الواعيتان على الرغم من صغرهما على هذا العالم حتى فجع بكونه أصبح يتيما بفقدانه والده وهو في العاشرة من عمره.. حينها أدرك أن هناك ضيفا ثقيلا سيحل على دارهم.. وأن هذا الضيف سيبقى زمنا طويلا في أغلب الأمر.. كان هذا الضيف شيئا اسمه "الفقر" لكنه شيئا فشيئا تصاحب معه، ولعبا معا، وأكلا وناما معا وأصبح ملازما له في كل وقت.. حتى إنه نسي مع مرور الزمن أن هذا الضيف شيء منفصل عنه.. يستطيع أن يختلس من ورائه لحظات يعيشها بحرية من دونه.. والأرجح أنه قد تعود عليه أو لأنه رومانسي إلى أبعد حد فقد تعاطف مع هذا الضيف الذي أصبح "صاحب بيت" ولم يهن عليه الهروب منه.. السعادة والفرح كلمتان لم يعتدهما كثيرًا.. ولذلك كان من الصعب عليه ممارستهما على الرغم من طبيعته البشوشة الضاحكة والمرحة.. فما إن كبر قليلا وأصبح طالبا جامعيا حتى وجد نفسه بلا أي ذنب معتقلا ضمن قطاع عريض جدا من شباب مصر ومثقفيها.. ثم خرج من المعتقل ليجد عاما من عمره قد ضاع

وهو الذي كان في سباق مع الزمن كي يحصل على شهادته الجامعية ليستطيع أن يعمل ويأمل في حال جديد وبعد مرور عدة سنوات عرف للمرة الأولى في حياته المعنى الحقيقي لكلمة "فرج" بل ومارسها عندما جاءت إلى الحياة ابنته الأولى وذلك بعد أن انتظرها أكثر من عامين منذ زواجه.. وقبل أن يشعر بارتواء ظمئه منها.. إذا به معتقل للمرة الثانية أيضا دون أي ذنب سوى أنه قد سبق اعتقاله مرة من قبل فيخرج من المعتقل مصطحبا معه ضيفا آخر أصبح ملازما له بل أصبح قابعا بداخله لا يبارحه حتى في نومه، كان هذا الضيف شيئا اسمه: الخوف من المجهول، خاصة عندما انكسر قلب مصر انكسارا غير قابل للإصلاح في يونيو 1967.. بعد هذا التاريخ الأليم بشهرين فقط أتت ابنته الثانية إلى الوجود.. لتصبح ابنتاه الصغيرتان هما كل ما يمتلك من حطام الدنيا.. وهما كل الفرحة التي يستطيع أن يملأ بها قلبه.. وهما "شباكه" على الأمل الذي ينتظره ويطمع أن يأتيه يوما ما حاملا معه الشعور بالهناء والأمان والاطمئنان عليهما ولذلك أصبحت البنتان هما هاجسه وشغله الشاغل وقلقه المستمر.. وهذا ما دعاه دائما إلى التساؤل حينما كانتا تكبران أمامه: "أفتح الشباك ولا أقفله؟"..

بالطبع هذا الرجل هو أبي.. وهذا التساؤل المستمر كانت حيرته

الدائمة في كيفية التعامل معنا وتربيتنا بطريقة تحقق المعادلة الصعبة التي يريد أن يحققها أب خلفيته الدينية والريفية والمادية تدفعه إلى الحماية الزائدة للبنتين، أما خلفيته الثقافية كإنسان واع مثقف.. شاعر.. وفنان يحب الرسم ويبرع فيه منذ نعومة أظفاره.. وأيضا رومانسيته ورهافة حسه تدفعه إلى الاتجاه الآخر وهو ترك مساحة من الحرية حتى لا تكبر البنتان ولديهما الكثير من العقد النفسية.. لكنه ما بين الاتجاهين والاختيارين صار حائرا بشكل دائم.. وبالطبع كان الحل الأمثل الذي أخذ به مثل أغلب الآباء ممن يشبهونه من حيث الظروف في ذلك الوقت بأن يظل "الشباك" كما نطلق عليه نحن المصريون "مشنكل" أي موارب.. لا هو بالمفتوح ولا هو بالمغلق، أو ربما كان أشبه بـ"المشربية" ومن هنا أصبحت الرؤية بالنسبة لنا وللكثير من بنات جيلنا اللاتي يشبهننا في كثير من الظروف والخلفيات.. أصبحت الرؤية ناقصة إلى حد ما لكننا أيضا من خلالها نستطيع أن نمارس حياتنا بشكل أقرب إلى الشكل الطبيعي.. وهكذا أيضا - فيما أظن - كان الحال مع "مشربية" مصر وكان ذاته السؤال لقيادتها بعد هزيمة يونيو 67 "أفتح الشباك ولا أقفله؟" لكن في تصوري المتواضع كان لفترة قصيرة من الزمن ثم ما لبث أن فتحت جميع الأبواب والنوافذ لاحقا.. وبقينا نحن نطل من مشربياتنا

على ذلك العالم المفتوح والمفضوح معا.. وقد شكلت أبواب ونوافذ حياتنا ومجتمعنا شخصياتنا جميعا التي أصبحت واجهتنا التي يعرفنا من خلالها الناس من حولنا.. ثم شكلت "مشربياتنا" الخاصة جدا على تلك الأبواب والنوافذ العامة شخصيتي الخاصة جدا أيضا.. فمن حيث الأبواب العامة التي حرص عليها المجتمع وبالتالي حرص عليها أبي وأمي أيضا على الرغم من حرصهما الأكبر علينا.. كان: باب التعليم، باب: صلة الرحم وذوي القربى والمعارف والجيران، أما النوافذ فكانت كثيرة ومتاحة للجميع لكن تختلف كل أسرة عن غيرها في إمكانية وسماحية التطلع منها ولذلك فهي كانت محدودة بالنسبة لنا ولكن كان بينها ما هو جديد ومختلف عما تربى عليه أبي ومن مثله من غالبية الشعب المصري الذين كانت نشأتهم في القرية ولذلك كانت كل الأبواب بالنسبة لأبي وغيره مفتوحة على عالمهم الصغير.. فكانت طرقات القرية وحقولها هي بابهم إلى الترفيه وقضاء الوقت.. وهناك باب إلى الكتاب ثم إلى "الدوار" الذي كان أشبه بالمنتدى الثقافي.. ثم بدأت الأبواب شيئا فشيئا تفتح على أماكن أرحب وأرحب حتى جاء أبي إلى القاهرة كغيره أيضا للدراسة بجامعتها العريقة.. ثم استقر به الحال فيها فيما بعد، أما نوافذ أبي فقد تلخصت في عدة نوافذ كان أهمها: الكتب.. والمجلات العريقة التي

أسهمت في بناء الكثير من أبناء جيله مثل مجلة "الرسالة" وغيرها ثم ظهرت الإذاعة، بكل ما فيها من ثقافة وصور غنائية وما شابه لتخلق عالما جديدا من الخيال وبعدها ظهرت السينما أوسع وأكبر يطل من خلالها أبي وجيله على عالم جديد تماما.. فشاهد الأفلام الأمريكية التي شكلت حالة انبهار وتنوع مدهش في ثقافته، لكنه أيضا كان يشاهد أفلاما عربية أحيانا.. خاصة إذا كانت مثل فيلم "غزل البنات" الذي حرص أبي على حضوره في السينما عدة مرات لكونه شديد الثراء من حيث الألحان والغناء الذي أبدعه محمد عبد الوهاب الذي يعشقه أبي لحد التوحد معه، وكذلك عذوبة وفتنة ليلى مراد من حيث الصوت والشكل معا، فقد كانت بحق في تلك الفترة معشوقة شباب هذا الجيل، بالإضافة لأداء نجيب الريحاني حيث كان أبي يرى نفسه في هذا الشخص الملقب بالأستاذ حمام وتمثل له ليلى مراد تلك الفتاة اللعوب المدللة الدنيا بحلاوتها وقسوتها حين تدنو منه فيظن أنه امتلكها فإذا بها تدير له ظهرها وتهجره بقسوة ليفيق من أحلامه على واقعه الأليم من جديد.. أعرض تلك الإطلالة السريعة على عالم أبي تحديدا لأنه المشكل الرئيسي لشخصي المتواضع كما ذكرت في الحلقات الأولى لهذه المذكرات.. وأيضا لأعرض رؤية شاملة سريعة أيضا لأسباب الفروق ما بين عصرين أسهما بشكل كبير في تشكيل التركيبة

الاجتماعية والنفسية التي وجدنا عليها نحن أبناء جيل ما بعد هزيمة 67.. فبالنسبة لي وشقيقتي فقد نشأنا في القاهرة لكن أخلاقيات القرية تعيش بيننا ونتعايش معها بشكل طبيعي من خلال أبي وأمي أيضا.. فالقاهرة إن كانت هي المدينة التي وعيت أعيننا عليها إلا أنها أوسع وأكبر من حدود "مشربياتنا"، وهي مدينة يسكنها الغرباء وليس الأقارب والمعارف مثلما هو حال القرية.. ولذلك أبوابها مغلقة لا تفتح إلا لمن يطرقها، أما نوافذها فهي ليس لها عدد لمن يريد أن يتطلع على كل شيء وأي شيء.. ومن هنا كان للخوف والقلق مساحة أصبحت تزداد كلما كبرنا.. ومن هنا كانت حيرة أبي تزداد مع مرور الأيام.. كيف يحقق المعادلة الصعبة التي تثمر فتاتين مثاليتين مثلما ينشد أي أب لأبنائه؟ وقد وعي سمعنا منذ اللحظات الأولى في حياتنا على كلمات ذات جرس مختلف.. وجلسات وأحاديث قد لا تتكرر كثيرًا في غالبية البيوت المصرية.. لكنها كانت تتكرر في عائلتنا خاصة كلما اجتمعنا مع أسرة عمي في القاهرة فكانت تحدث ما يشبه المساجلات الأدبية.. فنطلع على أنواع من العبارات في مجالات الأدب والفن والدين ثم تشتد سخونة هذه الجلسات حين ننتقل إلى قريتنا التي نشأ فيها أبي وعمي بالطبع والتي تتميز بأن بها قدرا كبيرا من الوعي المبكر فيشترك عدد أكبر في الحديث

ويختلط ذلك كله في جو من المرح والسخرية من بعض المواقف الطريفة التي يجري استرجاعها وكنا جميعا نشترك في هذه الأحاديث أطفالا ورجالا ونساء وشيوخا.. ولذلك كان كلما استجد على العائلة فرد جديد من خلال المصاهرة مثلا فإنه كان يستغرب كثيرًا تلك الجلسات والمناقشات.. وربما يحس وكأنه وقع في مأزق مثلما كنا نحس ونحن أطفال عندما تتلفظ ألسنتنا بأي جملة فإذا بها تصبح فخا لنا وضعنا أنفسنا فيه حينما يسألنا أحد الأقارب من الجالسين في تلك الجلسات أن نعرب تلك الجملة التي قذف بها لساننا للتو بغير قصد منا "والله العظيم".. أما النوافذ فقد زادت بالطبع عن نوافذ عصر أبي وأيضا اختلفت وربما أغلقت نوافذ أخرى.. فنافذته التي كانت على الكتب والمجلات الثقافية مثل مجلة "الرسالة" أصبحت بالنسبة لنا تطل على مجلات "ميكي" و"سمير".. إلخ ثم استجد عليها بعض المجلات العربية الآتية من الخليج وذلك بعد حركة الهجرة الواسعة إلى دول الخليج.. بالنسبة لي كانت فرصة للتحليق في الأجواء التي كان يحلق بها أولاد عمي الذين سافروا إلى هناك.. وبذلك فتحت لي نافذة على عالم تمنيت يوما ما أن أدخل من بابه.. وحين كبرنا قليلا اتجهت أنظارنا إلى المجلات النسائية التي كانت أمي تحرص على شرائها.. فكانت مجلة "حواء" المصرية هي

الأساس ثم ما لبثت أن تراجعت هي الأخرى حين ظهرت مجلات عديدة تصدر من الدول العربية المختلفة ومنها أيضا أصبحنا نطل على دنيا جديدة ومختلفة، أما الكتب فقد اكتفينا بالكتاب المدرسي الذي تنتهي علاقتنا به آخر العام.. لكن هذا لا يمنع أننا بعد ما كبرنا قليلا أصبحنا نشتري بين الحين والآخر القليل من الكتب إذا توفرت معنا نقود.. لكننا مطلون على مكتبة أبي الذي ظل حريصا على اقتناء الكتب وشرائها كلما أمكنه ذلك حتى الآن.. الإذاعة أيضا لم تعد بالنسبة لنا تلك النافذة التي أطل من خلالها أبي، حيث كانت الإذاعة في زمنه محطة استقرار تتابع عندها الأسر المصرية المسلسلات الإذاعية والأحداث والبرامج الثقافية والصور الغنائية وحفلات أم كلثوم.. وأغاني وألحان عبد الوهاب وكثيرا من الأصوات التي كانت الإذاعة بالنسبة لهم المنفذ الوحيد الذي يطلون منه على العالم ويطل منه العالم عليهم، أما بالنسبة لنا فكانت الإذاعة أشبه بجرس "المنبه".. فما إن تستيقظ آذاننا على أغنية أم كلثوم الشهيرة "يا صباح الخير ياللي معانا.." حتى نعرف أننا يجب علينا النهوض لنلحق بموعد المدرسة.. ثم نستمع لبقية البرامج ونحن نتناول إفطارنا سريعا.. غير منتبهين جيدا لما نسمعه.. لنسرع بالخروج إلى المدرسة غير أنها في رمضان يختلف وضعها، حيث إن للإذاعة مذاقا خاصا في شهر

رمضان.. ثم بعد ذلك تصبح الإذاعة بالنسبة لي نافذة رائعة للتحليق في سماوات مختلفة من خلال إذاعات عربية مختلفة وكذلك إذاعة لندن ومونت كارلو.. فأصبحت متعلقة بها إلى حد كبير في فترة تعليمي الثانوي حين بدأت أتعلق بصوت فيروز إلى حد العشق الذي جعلني أسافر وراءها في كل اتجاه عبر الأثير، حتى لو كان إلى "إسرائيل" حيث إذاعتها التي كانت بكل أسف فقط أكثر الإذاعات نشاطا في إذاعة أغاني فيروز ومسرحياتها.. وأما السينما فلم تبق على حالها أيضا كما كانت أيام شباب والدي فقد اختفت ليلى مراد من الساحة الفنية واختفت معها الأحلام الوردية اللذيذة.. لنجد أنفسنا وقد تفتحت أعيننا على عصر جديد للسينما المصرية.. عصر أفرزته هزيمة 1967.. فإذا بأغلب الأفلام التي أنتجت أواخر الستينات وأوائل السبعينات.. تفتح عصرا جديدا يحفل بأمجاد "راقصات" مصر ولا فخر ويرفع من مهمة تلك "المهنة" التي وجدت لها من المناصرين "الأحرار" من يدافعون ويحاربون من أجلها.. وكأنهم اختزلوا صورة مصر المهزومة في أجساد تلك الراقصات وبائعات الهوى. ولأن أبي أصبح شريكا في حياة زوجية مع طرف آخر هو أمي التي كانت قد مرت هي الأخرى من أبواب وتطلعت من نوافذ مختلفة وإيمانا منه بالديمقراطية ومراعاة مشاعر الطرف الآخر.. فقد كان يستجيب في

بعض الأحيان لمطلب أمي متأثرة ببعض آراء قريباتهـا.. فحظينـا بـشرف حضور أفلام على شاكلة "بمبة كشر" و"خللي بالك من زوزو"، وكـان ذلـك بـالطبع علـى غـير رغبـة أبـي الـذي قبـل علـى مـضض حتـى لا يـتهم بالديكتاتورية وفرض الرأي على أنني أذكر يوما لم تطلع له شمـس.. كنـا قد ذهبنا فيه إلى السينما لنـشاهد فيلمـا عرفـت فيمـا بعـد أنـه كـان فـيلم "ثرثرة على النيل"، ويبدو أنني في ذلـك اليـوم كنـت قـد استـسلمت لنـوم عميق عندما أطفئت الأنوار فإذا بي أجدني فجأة خارج السينما أمسك بيـد أبي المنتفضة من "غليان" الدم في عروقها.. وإذا بنا نـسير بـسرعة شـديدة ولا أعرف إلى أين نتجه ولا أعرف ما الذي دفع بنـا فجـأة خـارج الـسينما ولا أعرف أين أمي وأختي.. كل ما أعرفـه أنـني مندفعـة بـسرعة في سير يشبه العدو.. ممسكة بيد والدي بشدة وقدماي الصغيرتان تحاولان اللحاق بجسدينا معا.. وأشعر أننا نكاد نصطدم بـالآتين في مواجهتنـا علـى نفـس "الرصيف" ثم نظرت ورائي لأجد أمي وأختي يتبعاننا وقد ربط بيننا خيط مكفهر شديد الـسخونة ينـذر بحالـة غليـان قـد تـصل إلى الانفجـار في أي لحظة.. وأنا على الرغم من صغر سني في ذلك الوقت وعلى الرغم من أنـني لم أفق إلا ونحن نعدو في الشارع وكأننا نهرب من شـيء.. فـإن قلـبي كـان ينتفض بشدة خوفا وقلقا من شيء لا أعلم ما هو.. ثم بعد ذلك ربما بأيام..

ربما بسنوات.. المهم بعد ما وعيت إلى حد ما علمت أن أبي لم يطق ما يحتويه الفيلم من "مناظر".. خاصة أن معه زوجته وبنتيه اللتين تطلان بأعين ما زالتا تتفتحان على الدنيا من خلال هذه النافذة العجيبة فإذا به يخرج من السينما خلال عرض الفيلم.. والحمد لله أنه كان يسمح وقتها بالخروج أثناء العرض!! ومن هنا اكتفينا بأفلام "ميكي ماوس" و"نقار الخشب" وغيرها التي كنا نحرص عليها كل يوم جمعة فكنا نصحو لها مبكرا حتى نلحق بحفلة العاشرة صباحا وأيضا لا مانع من بعض الأفلام القليلة التي يختارها أبي مثل فيلم "صوت الموسيقى" بطولة جولي أندروز ومعها مجموعة الأطفال.. ثم بعد ذلك ببضع سنوات عاودنا الحنين إلى الأفلام المصرية.. عندما بدأ نجم "عادل إمام" في السطوع ليصبح فيما بعد نجم "شباك" فإذا بأبي يرق قلبه لاختياراتنا الطفولية الساذجة الساعية إلى الضحك فقط.. فكان ذلك سببا كافيا لموافقة أبي على مشاهدة بعض أفلامه لكن النافذة الأحدث والتي لم تكن موجودة وقت أن كان أبي طفلا كانت تلك النافذة العجيبة التي غيرت من شكل المجتمع وما زالت تغير ولا نعرف إلى أين ستأخذنا معها.. تلك النافذة هي ذلك الصندوق العجيب الذي ظهر في مصر لأول مرة في يوليو عام 1960.. وهو ما سمي "التليفزيون" وقد ولدت بعد سبع سنوات من ظهوره في مصر أي في تلك

السنة التي أطلت مصر جميعها من نافذة واحدة وفي الوقت نفسه لتسمع وترى أوهاما وكذبا ظل مسترسلا على مدار اليوم.. إلا أن بعض القلقين والمتشككين في هذه الأوهام اتجهوا للنافذة الأخرى وهي الإذاعة، ولكن التي لا تبث من مصر فإذا بهم يستمعون إلى كارثة لم يريدوا وقتها أن يصدقوها وإلا فإنها ستكون النهاية.. ولكن إذا بـ"الزعيم" يطل عليهم بعد يومين من الانتصارات الكاذبة.. وإذا به يعترف بهزيمته المروعة على مرأى ومسمع من العالم وإذا بهم يرونه ولأول مرة يبكي أمامهم.. وإذا بصنم الحلم الذي صنعوه وباركوه وتبركوا به طيلة الأعوام السابقة يهوي إلى مكان سحيق فتذروه الرياح رمادا لم يجدوا من أثره شيئا. هكذا أطلت مصر لأول مرة في نفس اللحظة من نفس النافذة لأنه حتى الذين لم يكونوا يمتلكون هذه النافذة وقتها اتجهوا صوبها إما عند جار أو قريب أو في مقهى.. المهم كان للرؤية وقع أكبر في النفوس من السمع فقط فإذا بالجماهير المخدوعة قد خرجت أو أخرجت لترفض تلك اللحظة المهينة وتطالب ببقاء الجاني ليرعى مصالح المجني عليه!! وأظن أن عبارة "الرأي العام" قد تبلور معناها بشكل أوضح في العالم بأسره منذ لحظة ميلاد تلك النافذة المعروفة بـ"التليفزيون" وبالتأكيد فإن الرأي العام المصري بالتبعية قد تأثر بشدة وتبلور أيضا بهذا الجهاز العجيب وتأثر

اتجاه بوصلته وفق إيقاع هذه النافذة.. المهم بعد تلك اللحظة الفارقة في تاريخ الأمة العربية بشهرين أتيت إلى الدنيا.. ويبدو أن تلك الأخبار كانت قد وصلتني وأنا في رحم أمي.. فإذا بي أجيء إلى ذلك الوطن المهزوم بصعوبة بالغة وكأنني أرفض أن أقبل على دنيا ما زالت تتأوه من أثر الانكسار الذي قضى على كل الآمال في نفوس هذا الشعب المسكين.. وتمر بضع سنوات لتعي عيناي وأذناي ما يقدمه ذلك الصندوق العجيب.. الذي لم نكن نمتلكه وقتئذ.. وإنما كنا ننزل إلى شقة خالتي لنشاهد ما يقدمه "التليفزيون العربي" كما كانوا يطلقون عليه وقتها.. ذلك الوقت الذي كان جهاز "التليفزيون" نسخة واحدة من حيث الشكل عند كل طبقات الشعب "العامل" فكان مظهره الخارجي يوحي بالتجهم والجدية.. فما زلت أذكر "قلابته" المستديرة في وسطه وفوقها زران على شكل أسطواني نلفهما بأيدينا واحد ليفتح ويغلق الجهاز والآخر للتحكم بالصوت وفقط.. وثلاثتهم يشكلون لي وجها بعينين وفما "مبوزا" ومع ذلك ارتبطنا بهذا الصندوق بشكل كبير على الرغم من أن الإرسال كان مجرد عدة ساعات قليلة من البث الأبيض والأسود.. فما زلت أذكر على سبيل المثال الرسوم المتحركة التي كانت تقدم في طفولتنا الأولى وكانت أغلبها تأتي من روسيا والدول الاشتراكية التي كانت مصر تنتمي لها في ذلك الوقت.. لكن للحق

كانت تلك الرسوم رائعة ولا تزال قابعة بداخلي حتى الآن.. فبعد أن تخصصت فيما بعد ذلك بسنوات بمجال الرسوم المتحركة رأيت ذلك الفرق ما بين الرسوم "الاشتراكية" إذا صح التعبير وما بين الرسوم "الأمريكاني" التي تأثر العالم كله بها.. فقد اهتمت الأولى بالعناصر التشكيلية والفنية أكثر وتميزت بالإيقاع البطيء الذي يحتاج إلى جهد أكبر في الرسم.. أما الثانية فقد اهتمت بالحركة السريعة و"الأكشن" وربما العنف أيضا كنوع من شد الانتباه أكثر.. وبالنسبة لي ما زلت أذكر ذلك الصوت المصاحب للرسوم الروسية وقد كان باللغة العربية وكان ذلك الصوت محببا لي جدا وربما يكون السبب في جذبي إلى هذا العالم السحري.

وأيضا ما زلت أذكر أيضا ذلك اليوم الذي أعلن فيه عن مقتل مذيعة التليفزيون الشهيرة في ذلك الوقت "سلوى حجازي" التي كانت على متن الطائرة القادمة من ليبيا وقامت إسرائيل بضرب تلك الطائرة التي احترقت في السماء.. كنا وقتها قد ارتبطنا كثيرًا بذلك الوجه الرقيق المسمى بـ"ماما" سلوى وكانت صدمة قاسية كأطفال وعت أعينهم مبكرا على ذلك العدو الفاجر الذي لا يتورع عن فعل أي شيء يعلن من خلاله عن غطرسته وقوته المستمدة من اللاشرعية في كل شيء. أما اليوم الذي لا ينسى بحق فقد كان يوم السادس من أكتوبر عام 1973 كنا نلعب معا

كعادتنا وكان عمي رحمه الله وهو بالمناسبة زوج خالتي أيضا التي كانت تسكن في الطابق الأسفل من شقتنا القديمة.. كان عمي يضع كرسيا أمام جهاز التليفزيون ويتابع باهتمام بالغ وإذا به يطالبنا بالسكوت ولأول مرة كنت أرى في ملامحه ملامح أخرى غير التي كنا نعرفها ونهابها كثيرًا، لأول مرة أجد في وجهه ملامح طفل فرح يتهلل وصوته يتهدج وهو يخبرنا عما يعلنونه في نشرة الأخبار وهو أن الجيش المصري عبر قناة السويس.. واقتحم خط بارليف المنيع لم نفهم وقتها ما قاله.. حتى سهل لنا العبارة وقال "يعني مصر انتصرت!!"..

كنا نحن الأطفال أول المصدقين فقد كان الكبار ما زالوا يعيشون ألم الخديعة السابقة.. فإذا بنا نهتف "تحيا مصر"، وانطلقت أهازيجنا وتهليلنا ثم أخذنا مجموعة من "الصواني" و"الكسرولات" لنطبل عليها وصعدنا إلى شقتنا في الطابق الأعلى في مظاهرة "عيالية" تحتفل بالنصر.. حتى جاء المساء وتجمعت العائلة كالعادة أمام التليفزيون لنتطلع جميعا مرة أخرى من نافذة واحدة في الوقت نفسه على تأكيد خبر العبور والنصر.. وكان المشهد الرائع حين امتدت طوابير الأسرى الإسرائيليين أمامنا وأمامهم ذلك الجندي المصري الذي يثير في النفس الفخر والفرح.. بعد تلك اللحظة بسنة تقريبا أصبحنا نمتلك نحن أيضا تلك النافذة

العجيبة.. فقد أمدتنا خالتي الصغرى والتي كانت وقتها مع أسرتها بدولة الكويت بجهاز تليفزيون كانت قد ربحته في مسابقة.. في ذلك الوقت لم يكن هناك أجهزة تشبه ذلك الجهاز الذي جاءنا من الخارج فقد كان يحمل ماركة "ناشيونال" التي تختلف في الشكل عن الأجهزة السابق ذكرها.. ذلك قبل هبوب جميع الماركات واردة الخارج جراء عصر الانفتاح.. كان التليفزيون الذي أصبح ملكا لنا صغيرا بحجم 14 بوصة وبالطبع كان أبيض وأسود وعلى شاشته "شاشة" أخرى شفافة لونها أسود.. كانت مصنوعة لحماية الشاشة الأصلية لكن لأن عادتنا هي الخوف والحرص خاصة وقد أتى التليفزيون بعد طول انتظار فإننا حافظنا على تلك الشاشة السوداء وتمسكنا بها في كل الأوقات تمسكا شديدا.. وهكذا ظللنا ما يقرب من عشرة أعوام نتطلع إلى تلك النافذة من وراء غلالة سوداء ولم نكن نتخيل أبدًا أن نقوم بنزع تلك الشاشة وقد تعودنا على الرؤية الأسود في أسود ونحن في غاية الرضا والاستمتاع.. إلى أن جاء يوم كنا قد كبرنا قليلا وذلك عندما سافر أبي تلك السفرة القاسية إلى الخليج وكانت وقتها تعيش معنا ابنة خالتي القادمة من الخليج أيضا.. وكانت بطبيعتها المتمردة دائما مستاءة جدا من هذه الشاشة السوداء التي لا نرى نحن فيها أية مشكلة.. فإذا بها تتمرد على هذه الشاشة وتقوم بانتزاعها وسط

استيائنا نحن أي أنا وشقيقتي وأخذنا نناشدها بأن تبقي عليها حفاظا على التليفزيون وهي غير مقتنعة بما نقوله لها وغلب رأيها في النهاية ونظرنا لأول مرة للشاشة وهي عارية.. كنا وقتها في غاية القلق والارتباك وكأننا نحن من أصابنا العري، لا سمح الله، وأخذنا نحاول بكل الطرق أن ترجع عن فعلتها و"تستر" الشاشة لكنها كانت تضحك من التزامنا التشبث بما تعودنا عليه منذ أن وعيت أعيننا على الحياة.. وأذكر أن أول يوم عريت فيه الشاشة الأصلية للتليفزيون كان يوم **25** من أبريل عام **1982** يوم عودة سيناء كاملة إلى أرض الوطن كنتيجة لمعاهدة السلام واتفاقية كامب ديفيد التي وقعها الرئيس السادات مع إسرائيل.. وللأسف كانت أول طلة من خلال النافذة العارية كانت على وجوه عارية وحقيقة أصبحت للأسف عارية أيضا فقد قدم التليفزيون المصري بثا مباشرا مع التليفزيون الإسرائيلي لإذاعة الاحتفال بعودة سيناء كاملة ولأول مرة أرى ترجمة باللغة العبرية على شاشتنا المصرية.. وأحاديث لقادة إسرائيليين إلا أن في تلك الفترة اختلطت الأمور كثيرًا وأصبحنا وكأننا في حالة عدم اتزان.. خاصة ونحن نجني ثمرة تطبيع العلاقات مع العدو الصهيوني وها هي سيناء تعود إلينا كاملة محررة دون إراقة نقطة دم واحدة.. لكن مشاعرنا ما زال بها شيء من ضيق ونحن نرى تلك الوجوه ولم نستطع بعد أن

نبتلع كلمة التطبيع هذه.. لكن هناك تسليم بالأمر الواقع.. والواقع يقول إن: "سينا رجعت كاملة لينا ومصر اليوم في عيد"، وهكذا غنينا ورددنا مع "شادية" في ذلك اليوم ونحن سعداء وراضون عن تلك الحالة التي نحن بصددها وقد قررنا ألا نفكر فيما ستأتي به الأيام المقبلة.. لكن قبل أن نذهب إلى الأيام المقبلة نعود قليلا مرة أخرى إلى بدايات البث التليفزيوني في بيتنا الحبيب أي بعد امتلاكنا لتلك النافذة المبهرة وما أصبح مثيرا لقلق أبي حينها هو أننا لن نستطيع الهرب من الأفلام التي تحتوي على "مناظر" غير مرغوب فيها مثلما حدث يوم "ثرثرة على النيل" فقد أتتنا هذه الأفلام إلى عقر دارنا، وإذا كانت علاقتنا بفيلم "ثرثرة على النيل" قد انتهت في اللحظة التي قرر فيها أبي مغادرة قاعة "السينما"، فإن علاقتنا بتلك الأفلام سيكون من الصعب إنهاؤها، خاصة إذا كانت تعرض بشكل يومي تقريبا.. فلم يكن التليفزيون المصري في بداياته يهتم كثيرًا بالرقابة على الأفلام إلا من الناحية السياسية فقط، أما فيما عدا ذلك فقد كانت الأمور مفتوحة إلى حد ما، إلى أن تأثرت رقابة التليفزيون بعد ذلك ببضع سنوات من نشأته بالاتجاه المحافظ الذي كانت تنتهجه دول الخليج.. إذًا أصبحت المسألة غير قابلة للسيطرة بشكل كامل، فقد بدأ التليفزيون في إطالة فترة إرساله، وفي الوقت نفسه كان أبي وأمي يخرجان إلى عمليهما..

ولا يحب أبي أن يتخذ قرارا بمنعنا من مشاهدة التليفزيون في عدم وجوده، خاصة في فترة الصيف التي نكون بها متفرغين تماما للمشاهدة، ولا سبيل أمامنا سوى هذه النافذة لقضاء الوقت.. ومن هنا عاد التساؤل المحير من جديد "أفتح الشباك ولا أقفله؟"، لكنه ما لبث أن انجذب هو الآخر لتلك النافذة من خلال برامج مثل: "عالم الحيوان" و"جولة الكاميرا"، تلك البرامج التي كانت تأتي بأشياء طريفة وجميلة منتخبة من نوافذ العالم المختلفة، والتي كانت الصورة تخدمها بشكل رائع يميزها عن الاستماع بالطبع بل والقراءة أيضا.. ولذلك اهتم والدي بأن نشاهد معه تلك البرامج التي كانت تعتبر بحق خيطا متينا يربط بيننا وبين تسليمنا بقدرة الله وعظمته من ناحية وأيضا يزيد الرابطة بيننا وبينه من ناحية ثانية، فوجدنا أنفسنا دون أن يطلب منا أبي ذلك نحرص على مشاهدتها، حتى وإن لم نكن ننجذب إليها بشكل تام.. وأظن أنني إلى الآن لا أزال أستلهم نظرة والدي إلى الحياة بشكل عام وإلى برامج التليفزيون بشكل خاص فأتابع كثيرا مما يتابعه أبي.. أما الأفلام.. فإذا صادف وكان أبي جالسا أثناء مشاهدتنا لها وجاء "منظر" لا يعجبه.. فلا مانع من سماع بعض الزمجرة إلى جانب قليل من الشتائم الموجهة إلى من نطالع وجوههم وربما أجسادهم في تلك الشاشة، وعندما تعلو نبرة الزمجرة والسباب

نعرف أنه يجب علينا غض بصرنا عن هذا المشهد.. فالطبع لم يكن هناك ما يسمى "الريموت كنترول" بحيث نغير القناة سريعا كما يحدث هذه الأيام.. ذلك بالإضافة إلى بعد التليفزيون عن متناول يدنا، فحتى يذهب من يريد تغيير القناة إلى القناة الأخرى ويدير تلك القلابة المستديرة لقناة أخرى.. ربما يكون قد مر نصف الفيلم وليس المشهد غير المرغوب فيه فقط. هذا بالإضافة إلى أنه ليس هناك إلا قناة واحدة بديلة وربما لا تكون في أوقات بثها حيث كان أوقات بثها أقل من القناة الرئيسية.. إذا فالحل إما أن نخترع حوارا ما نتداوله فيما بيننا ونطيل فيه وأثناءه نمعن النظر في وجهينا أنا وشقيقتي حتى لا تتسرب لفتة سريعة منا فترى تلك اللقطة السيئة.. وإما أن نطرق برأسينا نحو الأرض أو نتذكر شيئا نريد أن نحضره من الحجرة الأخرى حتى تمر تلك اللقطة التي لا نسمح لأنفسنا بمشاهدتها بملء العين حتى ولو كان أبي خارج المنزل إلى أن أصبحت تلك الأفلام بتكرار عرضها عبارة عن مجموعة "أكليشيهات" معادة ومحفوظة ومكررة حتى أصبحت مثل "نكتة بايخة" لا تأثير لها.. ثم بدأ عصر جديد من المشاهدة حين بدأت الألوان تطل من هذه النافذة.. فبدأ التليفزيون المصري يدخل البرامج الملونة على استحياء، ولذلك كانت الجرائد تضع خريطة البرامج اليومية وتضع علامات بجانب البرامج

الملونة حتى يعرفها من لديه تليفزيون ملون.. كنت وقتئذ أنظر إلى تلك العلامات بشغف شديد ثم أترك لنفسي العنان للإبحار في عالم الألوان وأتخيل كيف يكون كل ما نراه الآن.. ثم شيئا فشيئا أصبحت ساعات الإرسال كلها ملونة ولكن تلك الألوان لم تصل لنافذتنا بعد.. مثل كثير من الأسر المصرية إلا من سافر إلى دول الخليج فإن أهم ما يأتي به هو التليفزيون الملون.. الذي أصبح أعجوبة جعلت الناس يسعون من جديد للالتفاف حول نافذة واحدة إما عند الجيران أو الأقارب أو بعض المقاهي التي بدأت في جذب الزبائن بتلك الوسيلة الحديثة التي تدخل البهجة إلى القلب.. كنت في ذلك الوقت أحب الخروج إلى المحلات الكبرى التي أصبحت ممتلئة بكافة الأشكال والماركات حتى أرى ما هو شكل البث الملون.. فتأخذنا تلك الألوان في جولة بين كل تلك المعروضات وليس علينا سوى أن نحلم.. ثم يفيقنا معلق مباريات كرة القدم الذي كان يكرر ما بين الوقت والآخر: "إذا كان عندك تليفزيون ملون فإن الأهلي يظهر بزيه الأحمر والزمالك بالزي الأبيض.. أما إذا كنت تشاهد المباراة من خلال التليفزيون الأبيض والأسود فإن الأهلي يظهر بزيه الغامق والزمالك بالزي الفاتح"، وكأن الذي يمتلك التليفزيون الملون كان ينتظره ليعرفه الفرق بين اللون الأحمر الذي يرتديه الأهلي واللون الأبيض الذي يرتديه الزمالك..

لكن الحقيقة أن "سخافته" تلك كانت تشير إلى أنه أصبح الآن هناك فئتان تتطلعان من نافذتين مختلفتين.. وأصبحت تلك التقسيمة تدل على المستوى الاجتماعي وما حدث به من تطورات بشكل صريح.. إذًا أصبحنا الآن في مواجهة عصر الانفتاح بكل أشكاله وألوانه، خاصة من ناحية الاستيراد فقط.. وهذا يعني أننا كمجتمع بدأنا في التطلع إلى أشكال من وسائل الحضارة الحديثة التي قد تكون أكبر من إمكاناتنا وقدراتنا المادية، خاصة إذا كان التغير في الشكل الاجتماعي قد بدأ يتسارع بشكل مخيف، ويأخذ أشكالا لم يعتدها الشعب المصري.. فقد ظللنا أعواما وبالتأكيد ظل أبي وأمي أعواما أطول من تلك التي ظللناها نحلم بأن يكون لدينا تليفزيون "أبيض وأسود" وغسالة وثلاجة.. وما زلت أذكر أن تلك الأشياء قد جاءت إلى منزلنا كلها على "حياة عينا" كما يقال.. أي شهدناها وهي تأتي إلينا واحتفلنا بمجيئها احتفال الأسر بالمولود الجديد.. وذلك لأنها جاءت بعد عناء وطول انتظار، وترقب لأمي وهي تنظم "جمعيات" وتشترك في "جمعيات" حتى يتوفر قدر مادي يكفل لنا شراء كل سلعة من السلع المعمرة السالف ذكرها كل على حدة.. ويفرق ما بين مجيء كل سلعة وأخرى العام أو العامان.. ولكن مع فتح "باب" الهجرة إلى الخليج وردت هذه السلع بشكل متسارع جدا إلى الحياة

اليومية المصرية.. ولم تعد هناك قاعدة لامتلاك أفـراد المجتمـع لمثـل هـذه السلع.. كما أنها كانت لا تعبر عن تصنيفات شرائح المجتمع، وعلى هـذا الأساس بدأت تتشكل أطر جديدة بقـوانين جديـدة وتأخـذ موقعهـا حـول أفراد المجتمع المصري، فنجـد أن العمالـة اليدويـة الـتي كـان موقعهـا في السابق تحت خط الفقر، فإذا بهم خلال بضع سنوات قد اعتلوا هـذا الخـط بمراحل عديدة، وإذا بمقـدرتهم الـشرائية تتفـوق علـى مقـدرة "الموظـف" الذي ظل في مكانه، بينما ارتفعت قيمة وقامة كل منهم وما حولـه.. ومـن هنـا أصـبح هنـاك ميـزان طبقـي جديـد يقـوم علـى كلمـة واحـدة، وهـي: "بكم؟".. أي أن كل شيء أصبح خاضعا للتقدير من الناحية المادية، وربمـا يأتي الإنسان في مقدمة القائمة التي تخضع للتقييم المـادي أو "التـسعير".. ومن هنا تمت إعادة النظر في كثير من الأشياء الـتي نـشأ عليهـا المجتمـع المصري عبر عدة أجيال، وكان "الزواج" كنظام اجتماعي أهم ما أعيد النظر في قواعده من حيث الشكل والمضمون، فمع ظهور كلمـة "بكـم؟" وتكرارهـا في كل المواقف أصبحت تلك الكلمة تشكل هاجسا مخيفا يسيطر على عقول الشباب وأسرهم.. بل وأيضا على عقول الفتيـات وأسـرهن، بحيـث أصـبح هذا السؤال يتردد مع أنفاس هؤلاء الذين ظلوا على حالهم، وكـان أغلـبهم من الطبقة الوسطى الذين ليس لهم بدائل غير "الوظيفة"، كل تلك الأسئلة

أصابت الكثير من الشباب بالإحباط والكراهية لحاضرهم ومستقبلهم، خاصة إذا كانت هناك أعداد ليست بقليلة قادرة بالفعل على إجابة لهذه التساؤلات في عصر اهتزت فيه كل الثوابت والأساسيات.

وتطل من الغيب فجأة أسباب يستطيع الشباب الأخذ بها لتجيب عن كل التساؤلات، فتظهر كلمة جديدة لم تكن موجودة من قبل إلا على استحياء شديد، وهي عبارة "عروسة جاهزة"، بمعنى أن هناك فتاة لسبب أو لآخر.. تستطيع أن تقوم هي بكل أعباء الزيجة، فيقدم أهلها للعريس المنتظر الشقة ومستلزماتها.. وما عليه إلا أن يأتي "بشنطة هدومه" على اعتبار أنهم "بيشتروا راجل"!! وبالتالي طرحت مثل تلك الزيجات التي أخذت في الانتشار تساؤلا بين الكثير من الشباب مستوحى من عبارة ترددت كثيرًا في الإعلانات التجارية التي أصبح لها الكلمة الفصل في حياتنا الاستهلاكية الجديدة.. تلك العبارة التي تقول "وليه تدفع أكتر لما ممكن تدفع أقل؟"، وعلى الجانب الآخر تظهر عبارة "عريس جاهز" لدى كثير من الفتيات وأسرهن.. وتتمثل صفات هذا العريس في أنه شخص في أغلب الأمر سافر ليعمل بإحدى دول الخليج.. وليس لديه وقت أو مجال لاختيار زوجة تشاركه حياته العملية هناك، فينزل إلى أرض الوطن خلال إجازة يستطيع أن يقتنصها من عجلة حياته

المستمرة بلا توقف.. لكنه يستطيع أن يتمم إجراءات المقابلة والتعرف على عروسه والخطوبة وربما الزفاف أيضا، كل ذلك خلال شهر واحد، وأحيانا خلال خمسة عشر يوما.. ليعود إلى وطنه الجديد وقد غير خانة حالته الاجتماعية في سيرته الذاتية ليقدمها للمسؤولين في عمله.. فيصبح "هناك فرق" في مفردات راتبه، وبالطبع فإن أفراد أسرة هذا العريس قد يعاونونه في اختيار عروسه فيتسابقون في الفترة التي تسبق نزوله إلى أرض الوطن في استعراض الكثير من الفتيات واحدة تلو الأخرى، وأحيانا أكثر من واحدة في الوقت نفسه، حتى يأتي عريس الغفلة فينتقي منهن واحدة يرى أنها تصلح لهذا المقام الرفيع! لكن الأعجب من ذلك أن تظهر وظيفة جديدة هي الأغرب و"الأحقر" على مر الأزمان، ألا وهي وظيفة "زوج"، فلأن "باب" السفر إلى المملكة العربية السعودية كان لا يفتح للنساء إلا ومعهن "محرم"، فقد ظهرت تلك الوظيفة دون أن تكلف الطرفين المستفيدين أي ذرة من حياء أو كرامة.. وللأسف رأيت وعرفت عن قرب أشخاصا ممن أخذوا بهذه الوسيلة.. ولكن لا عجب بالطبع أن تنتهي مثل تلك الزيجات بالطلاق في أسرع وقت.. حتى أصبحت تلك الكلمة التي كان يهتز لها المجتمع في الماضي وهي الطلاق كلمة مستساغة ومسألة عادية جدا تحدث يوميا.. المهم هو ذلك "الهدف المنشود" وليس

هناك شيء يهم فيما عدا ذلك، أما النموذج الأخير من عرسان ذلك الزمان فهو الأكثر شيوعا، وهو جيل نشأ إلى حد ما على الراحة والرفاهية.. تلك الراحة والرفاهية التي نتجت بكد وعرق الأهل وتضحيتهم بكل شيء في سبيل حجب أي لحظة ألم قد تمر بأبنائهم وربما كان ذلك هو السبب المعلن لتبرير الكثير من المواقف، لكن النتيجة كانت تتسرب يوما وراء يوم وسنة وراء سنة إلى تصرفات وسلوكيات هؤلاء الأبناء.. فإذا بنا نجد مساحات شاسعة من الخواء بداخل هؤلاء الشباب، وللأسف لا يسد هذا الخواء سوى العديد والعديد من الأسماء والماركات الأجنبية بدءا من أنواع المشروبات الغازية.. ومرورا بالملابس من أخمص القدم إلى أعلى الرأس.. ثم السلع الأخرى التي تتكاثر وتتجدد كل يوم وانتهاء بماركات السيارات التي بدأت تملأ شوارع مصر.. فيا حبذا لو أخذ ذلك الشاب سيارة والده ليتنزه بها ويفتعل عدة حركات "أمريكاني" أمام مدارس البنات أو النوادي ليطلق عليه عبارة جديدة أيضا بدأت في الانتشار وهي "ابن ناس"، التي كانت تعني في الماضي أنه ابن عائلة محترمة ربت ابنها على القيم والأخلاق.. إلا أنها في ذلك الوقت كانت تعني "الناس اللي معاهم فلوس"، وباختفاء أي ملمح ثقافي وسياسي مستمد من التعليم ووسائل التثقيف والإعلام والمشاركات السياسية التي وئدت تماما في الجامعات

المصرية هذا إلى جانب المسافة الواسعة التي أصبحت موجودة بين الآباء والأبناء.. فإن ما تبقى في ذهن ذلك الشاب هو تلك الأشياء المتغيرة يوما بعد يوم.. وعلى ذلك فأفكار ذلك الشاب أيضا متغيرة يوما بعد يوم، ولذلك فهو دائما متردد في الكثير من اختياراته لأنه ربما يأتي الأفضل الذي لم يرَه حتى الآن.. وبما أن كل شيء تقريبا أصبح متاحا فإن السؤال الذي أصبح يتردد في نفس الكثير من هؤلاء الشباب هو: "ماذا أريد؟"..

وبالتالي لم يكن من المستغرب أن تكون للقيمة المادية والملموسة والشكل الخارجي الصدارة في تقييم ذلك الشاب أو الشابة للأشياء أو الأشخاص.. لكن الحقيقة أن كل هذه الأنواع من نماذج الشباب ذكورا أو إناثا قد اجتمعوا على فكرة واحدة.. ورأي واحد وهو أنهم اجتمعوا على أن يربطوا جميعا "العاطفة" في حجر ويلقوا بها إلى أعمق بحر أو محيط.. بالتأكيد كانت هناك استثناءات في كل قطاع من قطاعات الشباب.. لكن من المؤكد أيضا أن هناك تغيرا حقيقيا قد زحف على هذا المجتمع، خاصة عندما تأثرت كل "النوافذ" وتلونت بكل رياح التغيير التي هبت على تلك الحقبة من الزمن وهي فترة الثمانينات.. فنجد أن السينما مثلا أصبحت أكثر واقعية عن ذي قبل فنجد أفلاما قد امتلأت بقضايا صعبة ومحبطة أخذت من ملفات حياتنا اليومية التي تتحدث عن أزمات كثيرة مثل أزمة

السكن وأزمة الضمير والهجرة إلى دول الخليج.. و.. و.. وموضوعات بعدت كثيرًا عن جو الأحلام الذي عيشتنا فيه ليلى مراد.. ورومانسية فاتن حمامة.. وأنوثة سعاد حسني.. وأصبح النموذج الجديد هو نموذج مثل "سماح أنور"، تلك الفتاة التي ترتدي الجينز والأحذية الرياضية وتتحرك وتتحدث مثل الأولاد وتركب الموتوسيكل.. لكنها كانت محط إعجاب الكثير من الفتيات اللاتي بدأن في تقليدها، والأعجب أنها كانت محط إعجاب الشباب الذكور أيضا!!

ومن ناحية أخرى تأثرت الأغاني أيضا بالواقع الجديد وبعدت إلى حد ما عن الرومانسية وأصبح لها شكل ومضمون جديدان.. خاصة بعد اختفاء عدد كبير من الأسماء الكبرى في عالم الغناء إما بالوفاة وإما بالاعتزال.. في الوقت الذي ظهرت فيه مجموعة جديدة من الفرق الجماعية أحدثت تغيرا في شكل ومضمون الأغاني، وكذلك مجموعة جديدة من الأصوات والأشكال مثل "محمد منير" على سبيل المثال، فنجح أول ألبوماته الذي بالمصادفة يحمل عنوان "شبابيك"، وغنى منير وغنى معه الشباب عن الغربة والسفر والأحلام الضائعة داخل الوطن، بل إن أغانيه أيضا مست آلام الوطن العربي الحزين فنجده قد غنى عن الجنوب اللبناني الذي وقع أسيرا في أوائل الثمانينات بين يد العدو الصهيوني..

ويغني لأول استشهادية في عصرنا الحديث، تلك الفتاة اللبنانية الصغيرة "ثناء المحيدلي" التي ركبت سيارة مفخخة وفجرتها في نقطة عسكرية للاحتلال، فإذا بها تحدث دويا في العالم كله. وهناك أصوات أخرى وأغنيات أخرى ظهرت تحمل سمات الواقع الجديد على الرغم من أنها كانت لا تزال تتحدث عن العاطفة، ولكن في شكل مختلف.. فأتذكر أغنية ظهرت في ذلك الوقت لعلي الحجار عندما كان في أول طريقه أيضا.. تلك الأغنية كانت تقول:

"جايلك عشان أنهي السكوت

لو تسمحي ما تقاطعنيش..

كانوا زمان بيحبوا موت

دلوقتي أنا بحب أعيش"..

أي أنها كانت ترفض حالة العشق والذوبان.. والحزن على فراق الحبيب وآثرت التعالي على أفكار "الهجر" و"الصد" إلخ من مفردات العصور السابقة في دنيا المغنى والطرب، وفضلت أن تعيش الواقع وتنتقي كلمات تتناسب معه. وبعد أن كانت شادية "تطير ويا العصافير" وهي تنتظر حبيبها في شباكها الذي ستائره من حرير.. وتنتظر أن يأتيها

بالفرحة و"التوب الأبيض والطرحة".. فوجئنا بأغنية جديدة تماما علينا، فيها من رشاقة وخفة دم "صلاح جاهين" تقول:

"ما تحسبوش يا بنات إن الجواز راحة

وما تزعلوش يا بنات إن قلنا بصراحة

إن الجواز عمره.. عمره ما كان راحة"..

كانت هذه الأغنية تعجب أمي بشدة لأنها تنطق بلسان حالها الذي حلق كثيرًا مع "شادية" وستائرها الحريرية ليصحو على واقع مختلف عن تلك الأحلام، أما نحن فقد وعينا على تلك النبرة الجديدة في السينما والأغنيات.. ولم نكن بعيدين أبدًا عن تلك التغييرات التي طرأت على المجتمع المصري من جميع الاتجاهات.. إلا أننا لم نكن نحفل كثيرًا بتلك التغييرات.. ذلك أن أمي كانت دائما ما تتصور أننا طفلتان صغيرتان مهما كبرنا، وكانت أهم مبادئها أن البنت ليس لها إلا تعليمها و"شهادتها" حتى تتخرج، وبعد ذلك يمكننا أن نتحدث عن مسألة الزواج.. وذلك حتى لا تتفتح أعين "القطتين" المحنطتين، اللتين تفضل أمي أن تبقيا على تلك الحالة حتى يجيء الوقت المناسب، وكأنها تقبض على كل مفاتيح الأمور وتستطيع أن تستعملها وقتما تشاء، وعلى ذلك لم

نكن نتخيل نفسينا في وضع غير الذي ارتضته أمي لنا وباركـه أبـي خوفـا علينا.. ذلك الخوف الذي كان وحده يـشعرنا وينبهنـا أننـا نـصنف ضـمن قائمة الإناث، وعلى هذه الحال دخلت "باب" كلية الفنـون الجميلـة بعـد أن حصلت على الثانوية العامة.. كنـت وقتهـا قـد أخـذت فكـرة عـن جـو الكليات والجامعات ممن سبقنني إلى هذا العالم، سواء من شـقيقتي أو مـن قريباتي البنات.. اللاتي كانت خبراتهن تصب في وعاء معـرفتي وخبرتـي النظرية فقط.. فلأول مرة سيكون لي تعامل مباشر مع الجنس الآخر الذي كنت أتخيله صنفا آخر من المخلوقات.. وبما أننا نشأنا كجيل على النظـرة الواقعية للحياة بعيدا عن دنيا الأحلام وذلك من خلال كل ما يحـيط بنـا.. فقد تهيأت تماما لدخول هذا العالم في شكل يشبه التحفـز وكـأنني مقبلـة على معركة.. وإذا بي أدخل كلية "الألوان" بوجه عديم الألـوان خـال مـن المساحيق ومن كرات الدم الحمراء أيضا.. لكنه لا يخلـو أبـدًا مـن علامـات الجدية والحزم مضافا إلى ذلك الكـثير مـن التـوتر والقلـق.. ثـم بعـد ذلـك بسنتين تقريبا أضيفت إلى كل مـا سـبق نظـارة طبيـة.. ومـع قـصر قـامتي وملابسي الطويلة وحجابي وعدم اعترافي بأحذية "الكعب العـالي".. تـرى كيف تكون الصورة النهائية لتلك الصبية؟ بالطبع صورة كان ينقصها فقـط لافتة كتب عليها بالبنط العريض "مغلق" أو علامة "إكس".

كانت تعليمات أمي وأبي غير المعلنة لنا.. والتي وجهت لنا بشكل غير مباشر من خلال الحوارات والمناقشات والتعليقات على بعض الأعمال الدرامية تؤكد أن الكلية للعلم فقط، وأن علاقتك بزميلك الشاب علاقة تحكمها الدراسة فقط، وهي تستخدم حين تنعدم الفتيات.. وبالطبع لأن الفتيات كن يشكلن الأكثرية في كليتنا.. ومع رحيل العديد من الشباب الذكور إلى حيث أسباب الرزق خارج الكلية وربما خارج الوطن نفسه.. فقد انعدمت تقريبا علاقة الزمالة تلك بيني وبين الزملاء من الجنس الآخر ولترسخ فكرة مسبقة من خبرات من سبقنني تقول بأن أغلب شباب الجامعات من الذكور ما زالوا أطفالا بالإضافة إلى تشبعي كباقي جيلي بكل الأفكار الجديدة التي بثتها فينا سينما الثمانينات وأغنياتها وأفكارها التي تؤكد رأيا واحدا وهو: اختفاء العاطفة وظهور حالة جديدة من اليقظة من الأوهام والأحلام والتعايش مع الواقع الجديد الذي فرضته الحالة السياسية والاقتصادية وبالتالي الاجتماعية.. فقد استقرت وقتها في نفسي قناعة راسخة بأن "الحب" هو شيء أشبه بسيارة "مرسيدس" فارهة على أحدث طراز لا نحلم بامتلاكها ولا حتى ركوبها لحظة واحدة وإنما نراها من بعيد ونتعجب منها ومن راكبيها.. ونتساءل كيف استطاعوا ركوبها أو امتلاكها.. ونقنع أنفسنا بأن من يستطيع امتلاكها أو

ركوبها مشكوك في أمره ولا بد أن فيه "إن" استطاع من خلالها ركوب هذه السيارة "الحلم" وعلى ذلك فنحن نتمتم في كل وقت بالحمد لله على أننا لم نصبح من راكبي تلك السيارة!! أما الزواج فهو أشبه بساقين حقيقيتين خلقهما الله لنا، وهي ليست الساق الأصلية التي ولدنا بها وإنما هي ساق تنمو مع الزمن إلى أن يجيء الوقت المناسب فيكتمل نموها ونضجها.. لتحل محل الساقين الأصليتين مباشرة وتلقائيا دون أي تدخل منا.. ولأنها "خلقة ربنا" فهي كما صورت لي قناعتي ثابتة على الأرض قوية نستطيع أن نعتمد عليها في كل وقت.. ومن دونها نحن ناقصات.. وغير مكتملات البنية.. سكنت تلك القناعة بداخلي عدة سنوات.. خاصة أثناء دراستي الجامعية حتى إذا مرت خمسة أعوام هي كل سنوات الدراسة بكلية الفنون الجميلة وتخرجت في عام 1990.. إذا بي أخرج من "باب" التعليم الجامعي وأنا أسوأ حالا مما دخلت.. من حيث الثقة بالنفس والحذر والقلق من الجنس الآخر والتقوقع حول الذات أكثر، خاصة أنني دخلت الكلية أصلا ولم يكن لي هدف واضح إلا التخرج لأنتظر "العدل" الذي انتظرته منذ أن كنت ضمن طائفة "أطفال المفاتيح"، بالإضافة إلى أن الدراسة بكلية الفنون الجميلة لا تعتمد على المذاكرة والحفظ والتعلم النظري بقدر ما تعتمد على الممارسة العملية والثقافة البصرية وأيضا

العلاقات الاجتماعية، وهذا يعتمد بقدر كبير على سعي الطالب وما يريد أن يحققه.. وبما أنني ليس لي هدف واضح فلم أجتهد كثيرًا من ناحية الثقافة البصرية والسعي الدءوب من أجلها.. وبما أنني ظللت طيلة السنوات الخمس أتساءل بيني وبين ذاتي سؤال أبي المحير "أفتح الشباك ولا أقفله؟"، فقد فشلت أيضا فشلا ذريعا في مسألة العلاقات الاجتماعية التي تعتمد عليها الدراسة بدرجة كبيرة، خاصة إذا كانت عبارة "العلاقات الاجتماعية" في كلية مثل "الفنون الجميلة" عبارة فضفاضة تتسع للكثير من الأفكار و"الألوان" و"الهمسات" والتساؤلات، فقد آثرت السلامة والمشي جنب الحيط وقفلت "الباب" الذي يجيء منه الريح.. وما إن تخرجت حتى وجدت "بابا" آخر مفتوحا لي ولم أكن أتوقعه أن يأتي سريعا هكذا.. ألا وهو "باب" العمل، والحقيقة أنني لم أكن أنتظره على الإطلاق أو أريده، بمعنى أدق فقد كنت عازمة كما ذكرت من قبل على عدم طرق هذا الباب بالذات.. لكن كل من حولي كانوا يرون غير ذلك، وأنني يجب عليّ أن أعمل وأن هذا "الباب" أصبح ضروريا وحتميا للولد والبنت معا، ومن هنا استسلمت لرأيهم، خاصة أن ليس هناك سبب وجيه أستطيع أن أواجههم به.. بالإضافة إلى أنني كنت أريد أن أعطي أبي وأمي ولو قدرا بسيطا من الإحساس بالنجاح في تربية ابنتهما وفرحتهما في

جني ثمرة كفاحهما من أجلنا.. فرضيت بذلك العمل الذي كان معروضا علي وقد كان عبارة عن مدرسة تربية فنية بإحدى مدارس اللغات التي تنتهج نهجا إسلاميا والتي بدأت في الانتشار في ذلك الوقت لتحدث بعض التوازن في المجتمع الذي اعتاد على انتشار مدارس اللغات ذات النهج "المسيحي" والتي كان أغلبها يدار من خلال "الراهبات" وتدعمها الحكومات الأجنبية الناطقة باللغة الأساسية التي تدرس بها المناهج التعليمية سواء كانت إنجليزية أو فرنسية أو ألمانية لكن هذه المدارس لأنها باهظة المصاريف أصبحت أيضا تشكل معنى آخر في السلم الطبقي، ولذلك أصبحت مدارس الحكومة التي تربينا فيها نحن وأغلب أبناء جيلنا "سبة" يتحرج منها المواطن الذي وضعه قدره في خانة "المستبعدين" سواء من إطار الوجاهة الاجتماعية، أو من فرص الوظيفة المحترمة لهؤلاء الأبناء فيما بعد، ومن هنا انتشرت فئة جديدة بين الشباب يتعمد فيها الفرد فيهم إدخال الكثير من العبارات الإنجليزية في أحاديثه حتى يعرف بين رفقائه أنه من خريجي هذه المدارس التي تؤكد اللفظ السابق ذكره، وهو "ابن ناس"، وأصبحت اللغة العربية الأم.. مخنوقة وهزيلة ومهزومة في أرضها.. متآكلة الحروف.. حتى تحتاج لمترجم لها أكثر مما تحتاجه اللغة الأجنبية التي يتحدث بها هؤلاء الشباب حتى نفهم ما

يقولونـه ولأننـا كنـا قـد دخلنـا إلى الثمانينـات وقـد أصـبح العـدو صـديقا والصديق عدوا.. حيث طبعت العلاقات مع إسرائيل ذلك العدو الـصهيوني الذي عرفناه منذ أن وعت أعيننا على الحياة ولم نعـرف غـيره عـدوا.. وفي المقابل قطعت جميع الدول العربية علاقاتها مع مصر إزاء هـذا التطبيـع.. وعلى الرغم من أن جراحنا لا تزال تنزف من أثر ذلك العدو البغـيض فـإن الواقع الجديد يقول لنا إنه لم يعد عدوا.. لذا انحـصر الانتمـاء الـوطني في مباريات كرة القدم التي سعت القيادة السياسية للإعلاء من شـأنها كحالـة دعائية للإثارة وتلهية الناس أكثر منهـا رياضـة مفيـدة بـالطبع.. وكـذلك ابتكرت "الإدارة" المـصرية الجديـدة مدفوعـة برغبـة "الإرادة" الـسياسية الخارجية مجموعـة مـن "الـشواغل" والهمـوم الداخليـة بعيـدا عـن فكـرة "عدو" الخارج التي تربينا عليها.. فأصبحنا نـرى كـل يـوم عـدوا جديـدا بالـداخل.. مـرة علـى هيئـة تجـار للأغذيـة الفاسـدة وأخـرى علـى شـكل شركات توظيف الأموال.. وأخرى في شكل تطرف ديني وإرهاب.. وتجارة مخدرات.. إلخ وما بين اللغة العربية التائهـة علـى ألـسن الـشباب وبـين فقدهم للحلم في مستقبل أفضل يضيع مع كل حالة فساد تظهر ومـع نـسيان أو تناسي العدو الـذي أصـبح صـديقا.. أصـبح الكـثير مـن الـشعب المـصري المتدين بفطرته.. يحاول أن يتلقف أي معنى يحتمي به في تلك الغربة وأن

ينتمي إلى شيء وبالطبع لم يكن هناك أعمق أو أقوى من الانتماء إلى الدين فأصبح الاتجاه العام بين غالبية الشعب المصري هو الاحتماء بالدين ومن هنا انتشرت تلك المدارس التي تنتهج النهج الإسلامي محاولة أن تحقق المعادلة الصعبة بأن تخرج أجيالا لديهم دراية كافية باللغات الأجنبية جنبا إلى جنب مع لغتهم الأصلية، وأيضا تعاليم دينهم الإسلامية، ولكن للأسف فإن هذه المدارس في اعتقادي ما لبثت أن وقعت في العديد من الأخطاء فلم تستطع تقديم نموذج يحتذى به أو له المقدرة أن يواكب وينافس التيار الأقوى على الجانب الآخر والذي تدعمه الحكومات "الغربية" دعما جيدا.. في إحدى هذه المدارس الإسلامية بدأت أول عمل في حياتي.. وعلى غير ما توقعت وجدتني سعيدة به وبدأت أنسجم مع الحياة الجديدة وبدأت أشعر بالثقة بالنفس تتسرب إلي على استحياء وكدت أفتح "شباكي" لأتنسم عبير الحياة وأصبح لدي استعداد ضئيل لإعادة النظر في بعض قناعتي السابقة.. إلى أن فوجئت بعد ثلاثة أشهر فقط من العمل بأنني "مفصولة"!! ليس لأي سبب سوى أنني دافعت عن زميلة لي تم "فصلها" أيضا من قبلي بعدة أيام، فأخذتني الشهامة وقررت أن أتوجه إلى الإدارة وأعلن لهم رأيي الذي ظننته حرا في هذه الزميلة "المسكينة" التي تم فصلها، فإذا بهم يفعلون بي نفس الفعلة وكأنهم

يقولون لي.. ولا يهمك.. اذهبي معها..

كانت أول صدمة عملية لي.. ولكن أيضا أول درس عملي في مدرسة الحياة.. فقد عرفت فيما بعد أن تلك "المسكينة" كانت قد دأبت من قبل أن أعمل بهذه المدرسة على اختلاق المشكلات مع إدارة المدرسة.. وكانت كثيرة الغياب.. و.. فأدركت أن من الخطأ الدفاع عن أمر ما دون أن أكون ملمة بكافة الجوانب.. ومن هنا أخذت هذا الدرس ووضعته "حلقة في أذني" وظللت لفترة طويلة حزينة ومصدومة بعد فصلي من العمل الأول في حياتي.. ولكن من العجيب أنني مصممة على أن أجد عملا آخر أنتشل به كرامتي المجروحة من هذا الإحساس الطاغي بالفشل.. وبالفعل سرعان ما جاءتني فرصة أخرى أيضا في مدرسة خاصة، ولكنها هذه المرة في مدرسة أقرب إلى منزلنا القديم الذي كنا نسكنه قبل الزلزال.. وكان راتبها أعلى من المدرسة السابقة فقبلت على الفور.. دون أن أفكر ما الذي أريده بالفعل، ظللت بهذه المدرسة عدة أشهر أخرى أشبعت فيها روحي المنهزمة بنشوة الانتصار والثقة بذاتي مرة أخرى وبأنني ناجحة، وإدارة المدرسة الجديدة تتمسك بي بشدة.. حتى وجدتني من دون أي سبب وجيه أتجه صوب البيت من جديد وعازمة على عدم العودة مرة أخرى متعللة بأنني كرهت مهنة التدريس وبأنني اكتشفت عدم صلاحيتي لها..

كنت في هذا الوقت مدركة تماما لرغبتي الحقيقية ولكنني لا أستطيع البوح بها إلى مجتمعي، ومنهم أبي وأمي.. كنت أعلم تماما أنني اتجهت صوب حلمي الذي ظل يداعبني طيلة سنوات الدراسة التي كنت أنتظر نهايتها بفارغ الصبر، حتى أنعم بذلك الحلم الذي ظننته بسيطا.. وتصورت أنه آن الأوان لتحقيقه.. فإذا بالزلزال يطيح بنا ويبعثر أحلامنا ويبعثرنا معها.. لأجدني بعد ما استقر بنا الحال أغلق على نفسي كل "الأبواب" ولا أحاول الخروج إلا للضرورة وقد اكتفيت من الدنيا ببعض الراحة النفسية التي استقرت في نفسي بعد شهرين من إحساس أليم بالتشتت والضياع.. لكن كان السؤال المتكرر الموجه لمن هن في حالتي على الدوام حتى من الذين لا يعرفونك ولا تعرفينهم هو "انتي مخطوبة؟" أو السؤال الموجه من الأقارب والمعارف وهو: "مفيش أخبار حلوة؟".. والذي للأسف كانت الإجابة بالسلب على كليهما دفعاني للهروب منهما بألا أضع نفسي في مواجهة السائلين والسائلات قدر الإمكان.. خاصة أن كثيرًا من السائلات كن يتبرعن بإيجاد أي عريس على وجه الأرض حتى ولو كان عابر سبيل! فكنت أفاجأ كل عدة أيام بإحداهن تقترح علي "عريسا" وأحيانا تصطحب معها "عريسا" أو أحدا من ذويه.. حتى ضقت ذرعا بهن وبالمجتمع ككل وساندني أبي في رفض ذلك الأسلوب الكريه.. ولكن بما

أنـني لا أخـرج وبمـا أن مجتمعنـا ضـيق وأسـباب التعـارف والاخـتلاط بمجتمعات أخرى محدودة.. فقد كان الإلحاح علي من المقـربين وزمـيلات أمـي في العمـل وغيرهـم ممـن يعرفـون بـالقرار الـذي اتخذتـه يتعجبـون ويستاءون جدا ويعلنون لي رفضهم بشدة وكأنني أجرمت في حقهم، وعليه وجدتني في بعض المرات أخضع أنا وأبي لرأيهم وأوافق على ذلك الأسلوب المهين الذي لا يجد الكثيرون فيـه غضاضة أبـدًا، بحجـة أن لـيس هنـاك وسيلة أخرى للتعارف، خاصة لمن في مثـل ظروفنـا سـوى مـا يـسمى زواج الـصالونات، وعلـى هـذا الأسـاس رضـي أبـي بـأن يفـتح "البـاب" لـبعض الطارقين وليته لم يفعل.. فقد أتت لنا الريح بأشكال وألوان مـن البـشر لم نكن نتوقع أبدًا أن نقابل مثلها!! و حين أسترجع الشريط منـذ البدايـة.. تعود لذاكرتي تلك المقابلات التي كنت وقتها أمقتها بشدة وأظـل في حالـة ضيق شديد قبلها وبعـدها.. إلا أنـني حـين أتـذكرها الآن أجـد أن الكـثير منها كـان "كوميـديا" يـثير في نفـسي الـضحك والـسخرية أكثـر مـا يـثير الشعور بالضيق والمرارة.. لكنه يزيدني قناعة بأنني كنت علـى حـق حـين اتخذت القرار في البدايـة بـرفض ذلـك الأسـلوب.. ويزيـدني قناعـة أيـضا برحمة الله بي إذ جعل هؤلاء "العرسان" يبتعدون من ذاتهم دون أن أكلف نفسي عناء اتخاذ القرار.. ولكن كـي أكـون منـصفة لـي وللآخـرين فـإنني

يجب أن أؤكد أن هناك شخصيات قابلتها لم تكن سيئة ولم يكن بها عيب فظيع ولكن لم يكن هناك ذلك القبول الذي كنت أنتظر أن أجده في الشخص المتقدم، ولكن هذه المقابلات أعطتني فرصة عظيمة للتعرف على التغير الذي حدث بمجتمعنا بوجه عام.. وعلى عالم "الرجولة" بوجه خاص.. فما زلت أذكر ذلك الشاب الذي أتى بصحبة والدته لنتعارف في مكان عام، وقد كان هذا المكان عبارة عن حديقة عامة متواضعة.. كنت وقتها قد أصررت على ارتداء النظارة الطبية نظرا لأن الوقت كان مساء من ناحية، ومن ناحية أخرى حتى أتحرى الصدق والصراحة.. وحسنا فعلت فقد كانت الإضاءة ضعيفة وليست خافتة على اعتبار أن الأجواء من المفترض أن تكون رومانسية.. دخلنا المكان باحثين عن العريس ووالدته، وما إن وجدناهم حتى استقبلنا "الأخ" العريس وأخذنا حيث تجلس والدته التي رحبت بي بقولها "انتي لابسة نظارة؟!".. ثم نظرت لوالدتي وهي في الأساس زميلتها في العمل وقالت لها: "ما كنتش عارفة إنها بتلبس نظارة!!".. وكأن أمي كذبت عليها وأخفت عنها تلك "المصيبة".. ثم جلسنا.. وهنا بدأ حديث "الأخ" العريس الذي لم ينقطع لحظة، فأخذ يتحدث بلا كلل ولا ملل حتى إنه، والحق يقال، لم يكلفني عناء البحث عن كلمات.. كنت أستمع فقط إلى الحديث المسترسل دون أي "فاصل" حتى

كدت أصرخ فيه.. وآخذ سطل ماء كان بجانبي وأفرغه عليه وأظل أدق به على رأسه.. نظرا للصداع الذي ألحقه بي.. وبعد أن انتهينا، ولله الحمد، من هذه الجلسة المرهقة فإذا به ونحن نهم بالخروج يسألني في سماجة: "إيه رأيك فيّ؟".. ترى بماذا أجيب على مثل ذلك الشخص؟ المهم مرت عدة أيام.. وإذا بي أجده واقفا أمام المدرسة التي كنت أعمل بها منتظرا انتهاء اليوم الدراسي.. لم أدر في تلك اللحظة هل أترك نفسي للدهشة التي أصابتني حينما طلب مني أن نذهب معا لمكان هادئ لأنه يريد أن يتكلم معي.. أم أضحك لأن هذا الشخص لا يزال لديه فائض من الكلام لم يقله على الرغم مما أتحفني به في تلك الليلة السابقة.. أم أفرح لأنها المرة الأولى التي يطلب مني أحد طلبا كهذا الذي لم أره إلا من خلال أكليشيهات الأفلام المصرية التي تربينا عليها.. أم أشفق على هذا الشاب الذي لا يزال يشاهد تلك الأفلام وينطبق عليه عبارة انتشرت في ذلك الوقت وهي "عايش الدور"، ثم أدركت أنني يجب علي أن أستيقظ من هذه الدهشة التي أصابتني وأقول شيئا، فقلت له: إنني لا أستطيع أن أذهب معه إلى أي مكان دون أن أخبر أبي وأمي.. فقال لي بما يشبه التهكم "ولو عايز أكلمك في موضوع.. أروح أقوله لماما؟"، فقلت له بتأكيد: نعم.. فأخذ الكلمة وذهب إلى غير رجعة.. لكن الشيء العجيب هو أن تأتي والدته إلى

أمي في اليوم التالي وهي منزعجة وتعاتب أمي على ما قلته لابنها.. قائلة: "هو لا سمح الله ها ياخدها في حتة كدة ولا كدة؟" ثم بررت تصرف ابنها بأنه "عايز يحب قبل ما يتجوز!"..

في ذلك الوقت أخذت أراجع مع نفسي ما فعلته.. وأتساءل هل أنا المخطئة.. على حد علمي بأنني تصرفت التصرف الذي من المفترض أن يتفهمه الرجل بل ويرحب به.. ذلك أنني فعلت ما أملته علي تربيتي وأخلاقي المحافظة التي تصورت أنها المناخ السائد لأغلب بنات جيلي.. وأن هذا المناخ هو الذي يتجه إليه الشخص المحترم الذي يسعى للزواج من أسرة محترمة أيضا.. ظل هذا الموضوع يحيرني على الرغم من أنني قد حمدت الله حمدا كثيرًا على أن هذا الشخص ذهب إلى غير رجعة.. ثم حاولت أن أقنع نفسي بأن كونه سيئا فقد فعل هذا ولم يقبل بالأسلوب السليم.. وأرضيت نفسي بهذا التبرير.. ولكنني للأسف بعد مرور السنوات وجدت الكثير من الشباب يفكرون بهذه الطريقة ويعتبرون من هن مثلي معقدات أو متعاليات.. فأصابني ذلك بالحزن الشديد حيث اختلطت لدي الأمور وتشوشت.. ما هو الصواب وما هو الخطأ وإلى أين نسير؟ وهل سندفع ثمن أخلاقيات رسخت في تكويننا ولا نستطيع أن نتصرف بغيرها حتى لو حاولنا أن نتغير؟ على أنني حتى لا أتهم

بالجمود حاولت أن أتغير فيما أستطيع تغييره ألا وهو المظهر الخارجي وأول شيء اتجه نظري إليه كانت النظارة بالطبع.. فقلت لنفسي ولم لا أتعامل مع "اختراع" العدسات اللاصقة.. وكانت تلك الرحلة القصيرة جدا مع ذلك "الاختراع" الذي لم يتقبلني هو الآخر.. ذلك أن عيني لا يتناسب معها تلك العدسات المرنة وقيل لي إنها يتناسب معها النوع "الصلب" الزجاجي فاستجبت صاغرة.. ولكني خلال تلك الرحلة القصيرة تعذبت كثيرًا وعذبت أبي وأمي معي، حيث كانت تلك العدسة "تسرح" في عيني بين الحين والآخر.. وأظل أبحث عنها وأنا أتألم أو وأنا في غاية القلق.. وكثيرا ما كانت "تفط" من عيني فجأة فأصبح بعين واحدة.. وهكذا.. وكثيرا ما كان أبي يترك لي المكان حين كنت أضعها لأنها تتعبني كثيرًا وأنا أثبتها على عيني.. ولكن كله يهون في سبيل الرضا السامي علينا!! لكن المفارقة جاءت حين رشحت لي إحدى الزميلات عريسا يعمل طبيبا وأستاذا في الجامعة.. وعددت لي صفاته وصفات أهله الحسنة.. وانتظرنا ليأتي "بسلامته" وجاء اليوم الموعود الذي اتفقنا عليه.. وحين دق جرس الباب ذهب أبي ليفتح له.. ثم عاد مسرعا وهو مكدر وفي غاية الضيق.. وعندما سألناه عن سبب ضيقه قال.. يبدو أنه كبير جدًا.. ثم دخلت أنا وأمي لنعرف المفاجأة وهي أن العريس لم يأتِ وإنما بعث بأخيه الأكبر

وزوجته ليعاينا البضاعة قبل أن يحضر "بسلامته" بنفسه.. ليعاين هو الآخر ولكن المضحك في الأمر أنه عندما ذكرت زميلتي هذه لزوجة أخي العريس تلك التي جاءت إلينا والتي لا تحمل من التعليم سوى الإعدادية أنني أتعامل مع ذلك الاختراع العجيب الذي هو العدسات اللاصقة.. فإذا بهذه السيدة الساذجة تنزعج كثيرًا وتقول لزميلتي: إن العدسات تلك يستخدمها المثلون والفنانون وهذه النوعية التي ليس لنا بها شأن!! وعبثا حاولت زميلتي أن تفهمها أنني لا أستخدم عدسات ملونة وأن هذه العدسات عدسات طبية مثلها مثل النظارة.. ولكنها لم تستطع أن تستوعب الفكرة بتاتا، والحمد لله أنها ذهبت أيضا إلى غير رجعة.. ومن المواقف الكوميدية أيضا.. أتذكر ذلك العريس الذي ما إن طرق الباب وذهب أبي ليفتح له فإذا بالكهرباء تنقطع وهو لا يزال على باب الشقة.. وظللنا أنا وأمي ننتظر بالداخل ما يقرب من الساعة، ظلت أمي خلالها تردد آيات القرآن وتستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.. حتى عادت الكهرباء.. ولو كنت أعرف أنه سيذهب هو الآخر بلا رجعة لدخلت في "الظلمة" ربما كنت قد أعجبته أكثر!! وأيضا أتذكر ذلك العريس الذي جاء مع "أصحابه وأهله وجيرانه" بحيث إننا لم يكن لنا مكان نجلس فيه أنا وأمي وظللنا طيلة الوقت نقدم المشروبات والمأكولات، وما إن أفرغوها

في جـوفهم حتـى همـوا بالانـصراف فيمـا يـشبه المواقـف الـسينمائية والمسرحية الهزلية.. أما ما لا أنساه هو تلك السيدة التي جاءت مع ابنهـا "العريس" ولم تكن تعـرفني مـن قبـل ولكـن لـسبب مـا ربمـا يكـون طـول الطريق إلى بيتنا.. هكذا أعلل لنفسي فـإذا بهـذه الـسيدة تـدخل مكـدرة.. وعندما دخلت لأسلم عليهم إذا بها ترفض أن تمد لي يدها بالـسلام حتـى انتزعت يدها منها عنوة فسلمت وهـي متأففـة وتـرفض أن ترفـع وجههـا لتنظر إلي.. ومـا إن هممـت بـالجلوس حتـى هبـت واقفـة وأمـرت ابنهـا وزوجها بالانصراف.. وسط ذهولنا ! ! مرت سنوات ونحن نواجه مثل هذه النماذج ومع كل مرة يتكرر سؤال فيما بيننا: "هو فيه إيه؟!"..

ما الخطأ الذي ارتكبناه.. ولماذا نحن بالذات.. نتقابل مع مثل هذه النماذج؟ ربما مكان سكننا؟ ربما النظارة؟ ربما أسلوبنا في الكلام الذي بـه الكثير من الفصحى التي أصبح لا يفهمها أحد؟ ربما... وربما.. وربما.... أما أمي فقد أقنعها من حولها بـ"ربما" أخرى ألا وهي أنـني "معمـول لـي عمل" واستجابت أمي في ذلك الوقت بكل من يفتيها بـ"فتية".. حتى جـاء الوقت الذي أعلنتها صريحة وبكل قوة ولـيكن مـا يكـون.. وصـممت علـى أنني لن أقبل أبدًا بتكرار تلك المهزلـة.. ولـن أقبـل أن أضـع نفـسي تحـت رحمة المترددين والواهمين والخائفين من الظلمـة والنـور معـا والمـتخلفين

والعائشين في العهود السحيقة و"العايشين في الدور" والمخرفين والمخرفات والمشعوذين والمشعوذات. ووافقني أبي على هذا القرار بعد سنوات عشتها تحت رحمة الخوف من لقب "عانس" وسنوات من التنازل والتبرير حتى لا أتهم بالتعالي والكبر، وأيام وليال قضيتها أبكي بيني وبين نفسي حتى لا أحمل أبي وأمي أي لحظة ألم.. وأيام وشهور من مراجعة النفس وإعادة النظر في أساسيات وثوابت.. وهكذا أعلنتها صريحة والتزمت بها إلى حد كبير.. لا وألف لا لذلك الإحساس بالهوان والرخص والبوار، في ذلك الوقت كنت قد دخلت من باب جديد هو "باب" العمل الثالث لي.. فلأول مرة تطلب وزارة التربية والتعليم مخرجين ومخرجات للرسوم المتحركة وذلك للعمل على تطوير التعليم وتحسين أداء العملية التعليمية من خلال إنتاج برامج تعليمية تعتمد على الرسوم المتحركة والوسائط المتعددة التي كانت بالنسبة لي وللكثيرين معي جملة مبهمة.. لكنها كانت فرصة جيدة جدا لي بكل المقاييس.. خاصة أنها كانت في نفس المكان الذي يعمل به أبي على الرغم من أنني كنت أرفض تماما فكرة العمل بوظيفة حكومية حيث كنت أشبهها بالزواج الكاثوليكي الذي ليس به طلاق.. فقد كان التفكير في ترك العمل مقدما لدي على العمل ذاته.. ذلك أن الحلم ما زال مستقرا بداخلي، كان ذلك في أواخر عام 1993 كنت خلال تلك الفترة

أعيش خريف العشرينات من العمر التي أحسبها المرحلة الأشد حرجا في عمر الفتاة.. ولذلك بدأت أخطو خطواتي المتوجسة نحو الباب الجديد، فلأول مرة يعرف وجهي الألوان ولكن على استحياء شديد.. وبدأت أتصالح مع "الكعب العالي" حتى تعودت عليه شيئا فشيئا.. في هذا الوقت كان قد مر عام على استقرارنا بالمنزل الجديد بعد الزلزال.. حيث كنت راضية أشد الرضا عن ذلك المكان الذي استقررنا به وأذكر نفسي بين الحين والآخر بالعهد الذي قطعته عليها بألا أتبرم من شيء كنت قد حمدت الله عليه من قبل، والحمد لله أنني لم أحنث بعهدي على الرغم من بعض الضعف الذي كان يتسرب إليها في لحظات كباقي البشر، خاصة عندما كنت أقاسي الويلات وأنا ذاهبة إلى العمل أو عائدة منه في مواجهة المواصلات العامة، كان هذا العام الذي بدأت فيه عملي الثالث عاما مختلفا على أصعدة كثيرة، خاصة على الصعيد السياسي، فقد فوجئنا بعد فترة من التكهنات والهمسات بأن هناك مباحثات سرية تجرى بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وإذا باتفاقية سلام علنية بين الطرفين تعلن أمام الجميع وتنقل لنا عبر شاشات التليفزيون وهو الأمر الذي لم نكن لنصدقه أبدًا من قبل.. بأن يلتقي الطرفان يوما ما وجها لوجه، بل ويتصافحان أيضا ليعلنوا بدء المفاوضات على مبدأ "الأرض" مقابل

"السلام".. كانت الاتفاقية التي قبلها الطرفان لأول مرة نتاجا لكفاح الأطفال لسنوات.. الأطفال وحدهم هم من صنعوا تلك الدرجة التي استطاع "ياسر عرفات" أن يقف عليها في مستوى أقرب إلى الدرجة التي وقف عليها إسحاق رابين على الأقل في الظاهر أمامنا.. الأطفال وحدهم هم من وقفوا أمام الدبابات الإسرائيلية بصدور عارية.. وقلوب شجاعة وعيون متنمرة ومتحفزة.. وأيادٍ صغيرة تقبض على قطعة حجر هي سلاحهم الوحيد أمام القنابل العنقودية والفسفورية والرشاشات والمدافع المصوبة تجاههم.. الأطفال وحدهم هم من استطاعوا إجبار إسرائيل بجبروتها وغطرستها على الجلوس إلى مائدة المفاوضات.. والأطفال وحدهم هم من كان لديهم الإصرار والمثابرة ليتحقق ذلك.. ولو سئلوا من قبل إعلان الاتفاقية لاختاروا الاستمرار في هذه المعركة البطولية حتى يردوا لآبائهم وأجدادهم ما سلب منهم بالقوة والغدر معا، ولكن أصبح هناك واقع جديد.. وقتها لم نعرف أيضا إن كان حسنا أم سيئا لكنه أصبح أمرا واقعا بكل أسف، وأصبح هناك ما يسمى اتفاقية "أوسلو" التي تقضي ضمن ما تقضي به بقيام سلطة فلسطينية تقع تحت طائلة وغطرسة السلطات الإسرائيلية فيما يشبه الحكم الذاتي تمهيدا لقيام دولة فلسطينية في وقت ما لم يعلن عنه.. وعلى ذلك ارتضينا بذلك الوضع الجديد.. وأقنعنا أنفسنا

بأن القضية الأزلية التي وعيت أعيننا عليها أصبحت على وشك الانتهاء ثم فوجئنا بعدد من الدول التي كانت قد قاطعت مصر بعد إبرامها اتفاقية السلام مع إسرائيل.. إذا هم أنفسهم يهرولون لإقامة علاقات تجارية واقتصادية مع الكيان الصهيوني سواء كان سرا أو علانية، ولمَ لا وأصحاب الشأن أنفسهم قد باتوا أصدقاء الآن مع محتلي أراضيهم، في اعتقادي أن هذه السنة كانت سنة فارقة في حياة الشعوب العربية، وكأنهم كانوا أشبه بمن ظل يحمل على ظهره حملا ثقيلا ثم أتاه من يقول له تخفف من حملك وضعه جانبا فسنحل لك كل مشاكلك وهمومك فقط اترك لنا نفسك.. فإذا به يصدق ما قيل له متشبثا بالأمل وإذا به ينسى أو يتناسى كل ما مضى.. ليبدأ عصر جديد لا نذكر فيه جملة "القضية الفلسطينية" أو "أزمة الشرق الأوسط" أو حقوق الشعب الفلسطيني أو كلمات مثل: الأسرى المهجرين واللاجئين.. وفي اعتقادي المتواضع أيضا أن تلك الاتفاقية رسخت مبادئ جديدة على العقل الجمعي العربي كشعوب وأفراد ومواطنين تلك المبادئ التي حفرت أساسها وأعلت أولى لبناتها تلك الهجرات الجماعية إلى دول النفط تاركين الأرض التي كانت في زمن ما كالعرض راضين بأن نمد أكفنا إلى من يعطينا مبلغا من المال أول كل شهر.. ثم ها هي اتفاقية أوسلو تبني فوق هذا الأساس مضمونا آخر.. ألا وهو المصلحة قبل كل

شيء.. والبرجماتية بكل جموحها والتجارة لأي شيء حتى بالعرض والشرف والنخوة والكرامة.. ذلك لأنهم اكتشفوا أنهم كانوا يتاجرون علينا بها في الأساس.. والآن سقطت الأقنعة وأصبحوا يتاجرون علنا وفجرا بالشرف والأصل والتاريخ والوجود العربي ذاته.. لنتطلع جميعا مرة أخرى من نافذة واحدة مرة أخرى لنشاهد ياسر عرفات وهو يهبط إلى مطار غزة لأول مرة بعد كل السنوات التي قضاها في المنفى ساعيا وراء قضيته في كل بلدان العالم إلا بلده.. الآن.. هو يستقبل من شعبه استقبال الفاتحين والأبطال ليتهيأ إلى تسلم منصبه الجديد كرئيس "للسلطة الفلسطينية" وفيما بين الدول العربية كان يطلق عليه رئيس دولة فلسطين.. الآن عمت الأفراح أرض غزة بحضور العديد من الشخصيات العامة السياسية والفنية، كانت الشعوب العربية سعيدة بإقناعها لأنفسها بأنها قد تخلصت من ذلك الأرق اليومي واتجهت جميعها صوب نوم طويل حرمت منه منذ قيام ذلك الكيان اليهودي، في هذا الوقت بدأت أنا أيضا أعيد صياغة بعض القناعات الساكنة بداخلي وبدأت أتخلى قليلا عن الحلم الأزلي الذي طالما حلمت به وهو "البيت" وبدأت أتكيف مع فكرة الخروج اليومي منذ الصباح الباكر وحتى المساء.. وبدأت كذلك أتكيف مع الصراع اليومي والجهاد في معركة المواصلات والزحام.. وتقبل

الآخرين، وبدأت أتقبل كينونتي الجديدة كفتاة عاملة لديها أشياء كثيرة تهتم بها خاصة بعد أن بدأت أعتاد على الراتب الشهري على صغره ليتيح لي الإحساس بلذة اقتناء أشياء تمنيت اقتناءها في وقت ما، ثم كان التغيير الأكبر في حياتي عندما فتحت لي أكبر نافذة لم أكن أتوقعها أو أتقبلها في بادئ الأمر وهي نافذة "الكمبيوتر" أو الحاسب الآلي الذي سمعت عنه الكثير وكنت أتخيله شيئا أشبه بصعود القمر نسمع عنه فقط ولا نستطيع ممارسته.. فإذا بالاتجاه الجديد الذي انتهجته الدولة لتطوير التعليم يتيح لي تلك الفرصة على الرغم من تخوفي الشديد منها.. ولكني شيئا فشيئا بدأت آلفه وأتصالح معه إلى أن أدمنته فيما بعد ذلك ليصبح صديقا مقربا لي، خاصة بعد أن استطعت بعد بضع سنوات امتلاكه في المنزل أيضا، وقد فتحت لي هذه النافذة نوافذ عديدة لم أكن أتصور يوما أني سأتطلع من خلالها.. كل ذلك من خلال هذا الجهاز العجيب الذي نافس التليفزيون وأصبح مهددا له أيضا.. ومن المصادفة أيضا أن يحمل النظام الأشهر الذي يقوم على تشغيل ذلك الجهاز اسم "windows" وما إن استطعت أن أتعامل مع هذه "النوافذ" وأجيدها حتى أصبحت المحور الذي تدور أيامي في فلكها فقد أعطاني الكثير من الثقة والإحساس بالإبداع والإنتاج، خاصة أنني استطعت ممارسة الرسوم المتحركة التي

أحببتها وتميزت فيها خلال فترة دراستي بكلية الفنون الجميلة فإذا بي أقوم بإخراج بعض الأعمال ويوضع عليها اسمي كمخرجة وأكون سعيدة بها، على الرغم من إحساسي ببساطتها وسذاجتها إذا ما قورنت بالأعمال الاحترافية التي تعرض على شاشتي التليفزيون والسينما.. لكنني أقنع نفسي بأنها أعمال تعليمية لا تحتاج إلى قدر كبير من الاحترافية، ولأن التعليم كان قد أخذ حيزا كبيرا من الاهتمام في تلك الآونة فقد أتيح لنا العمل وقتها على أحدث الأجهزة والبرامج فوجدنا أنفسنا ننافس كبرى شركات الإنتاج ربما في الشرق الأوسط، ولكن من حيث الأجهزة والبرامج فقط.. أما الإنتاج فلم تكن هناك خطة واضحة له، وكانت معظم الأعمال التي نقوم بها تقوم على أساس واجتهاد شخصي.. وشيئا فشيئا أصبحنا ننتج هذه الأعمال ثم نضعها بجانبنا على الأرفف.. وكثيرا ما كنا نواجه بأسئلة من قبل المعارف والأصدقاء عن إنتاجنا وهل يتجه صوب المدارس التي هي العنصر الرئيسي الموجه إليه هذه الأعمال.. فتكون إجابتنا بالنفي أو بعدم الإجابة.. أو نقنعهم ونقنع أنفسنا بأنها ستنزل بالتأكيد في المرحلة المقبلة، وخلال تلك الفترة أتيح لنا الذهاب إلى العديد من الأماكن التي لم يخطر لي على بال من قبل أنني سأرتادها.. وكذلك أتيح لي مقابلة شخصيات عامة كثيرة بدءا من رئيس الجمهورية والسيدة

حرمه ونجله إلى الكثير من الكتاب والصحفيين والفنانين.. والخبراء الأجانب والمصريين ثم فجأة حدث انقلاب عسكري داخل مقر عملنا.. فقد فوجئنا بمدير المركز ينقل من منصبه.. ليحل محله أحد لواءات الجيش.. وسط همسات وإيماءات توحي بأن هناك أخطاء جسيمة قد حدثت طيلة الفترة السابقة.. وإذا بجميع الأقسام والإدارات تدار من خلال هذه المجموعة من الرتب العسكرية الذين كانوا قد بلغوا سن التقاعد عن الخدمة العسكرية وحرصت الدولة على تسكينهم في وظائف حكومية عوضا عن وظائفهم الأصلية.. لم نكن ندري أو نعلم بما الذي يحدث غير علمنا بأن هناك سعيا لإثبات فشل المرحلة السابقة، وبالتالي إعادة النظر أو لنقل محو ما سبق كما هي العادة.. وبالتالي اتجهت إدارة المركز إلى تقليل النفقات من ناحية الأجهزة والمعدات وتوفيرها ليس لخدمة العملية التعليمية وإنما لتصب في جيوبنا وجيوب القادة الذين يرأسوننا.. وبالطبع كان هذا الاتجاه يدعو للفرح والتهليل من قبل الكثير من الزملاء والسعي لإرضاء القادة الجدد، أما أنا فلم أكن أحفل بأي شيء ولا أعطي قدرا كبيرا من الاهتمام لأي شيء.. حيث كان اهتمامي ينصب على عملي الذي أعطاني الكثير من الثقة وعلى شيء آخر لم أحسب حسابه يوما ما.. ذلك أن الثقة التي غمرتني عندما استطعت التعامل مع "نوافذ الكمبيوتر"

بالتحديد.. جعلتني دون أن أشعر أو أحسب حسابا لشيء أفك قيودي التي قيدت بها نفسي طيلة سنواتي السابقة فإذا بي أسمح لنفسي ولأول مرة بأن أتطلع من "شباك" شادية الذي ستائره من حرير.. ولا أدري ما الذي دفعني إلى أن تأتيني تلك الجرأة فأقف أمامه دون أن أتردد أو أخاف كعادتي.. ولا أعرف ما الذي جعلني أقف وجلة مستسلمة حين سلبت مني عيناي اللتان راحتا تتبعان في كل مكان وفي كل الاتجاهات جيئة وذهابا تلك "السيارة المرسيدس الفارهة" التي ظهرت في حياتي فجأة دون أن أتوقعها.. وما الذي جعلني أتقبل ولأول مرة فكرة أن أحلم بها.. وأن أتخيل نفسي بداخلها وأنا التي كانت لدي من القناعة طوال سنوات عمري السابقة.. أن هذه السيارة ليست لي ولست لها وأن من يركبها مشكوك في أمره، كما ذكرت من قبل، ما الذي جعلني أستغني عن قناعاتي وأستبدل بها قناعات أخرى؟ قناعات جديدة عليّ تماما لم أكن أسمح لنفسي بتبنيها أو حتى بالتفكير فيها.. قناعات كلها تفاؤل وأمل في الحياة المقبلة.. ما الذي جعلني أعطي لنفسي الأمل بأن من الممكن أن تكون لي "الزينة وبيارق المدينة"؟ ما الذي جعلني أرى الدنيا بهذا الجمال الذي لم أعهده من قبل؟ وما الذي جعلني أتقبل همومها ومشاكلها؟ وما الذي جعلني أراني جميلة وأسعد بنفسي كلما نظرت إليها في المرآة؟ ما الذي

جعلني أنسى تماما من حولي.. وماذا يحدث ومن الذي ترك ومن الذي أقيل ومن الذي قام بانقلاب.. ومن.. ومن.. ما الذي جعلني أبرأ من جراح مضت وحملت معها كل الإحساس بالهوان والضعف.. وفقدان الثقة بالذات.. وما الذي جعلني أتصالح معها بل وأحمد الله عليها.. ما الذي جعلني لا أشعر بالوقت وكم مضى من الدقائق والساعات والأيام والسنين كل ذلك حدث وأنا "خدي على الشباك" لأجد أنه قد مر من العمر سبع سنوات لم أشعر بها.. ولم أدر خلال تلك السنين.. أين أنا وماذا أفعل؟ كل الذي أعرفه أنني ظللت خلال تلك الأعوام السبعة وعلى الرغم من كل شيء أغني مع أم كلثوم "صالحت بيك أيامي.. سامحت بيك الزمن".. ثم ما الذي جعلني أفيق مما أنا فيه وأشعر أن كل ما ذكرته في السطور السابقة لم يكن إلا "صرحا من خيال فهوى" لكنني لم أشأ أن أكمل مع أم كلثوم رائعتها "الأطلال" فآثرت أن أهرب سريعا من أمام تلك النافذة التي كان الضباب الكثيف قد غطاها وجعلني لا أستطيع الرؤية من خلالها ولا أستطيع متابعة تلك السيارة الفارهة التي ظلت خلال تلك الأعوام تلف وتدور حول نافذتي.. وأنا لا أملك سوى أن أحلق حولها في مخيلتي وأحلامي فقط.

لكن ربما ما جعلني بالفعل أستيقظ مفزوعة من أحلامي الجميلة

بـل انتـزعني انتزاعـا حتـى مـن أحـلام اليقظـة ومـا تبقـى مـن ذكريـات شباكها.. وطيف "المرسيدس" الفارهـة الجميـل.. كـان هـو هـذا الكـابوس الذي عاش معنا في يقظتنا أكثر من خمسين عاما.. ذلك أن "السفاح" الهائج المدعو "شارون" قد قام باقتحام ساحة المسجد الأقصى مـدعوما بـستة آلاف من العـسكر.. في تحـدٍّ صـارخ ومهـين لمشاعر المسلمين والعـرب الـذين لا يزالون يمتلكون تلك المشاعر.. وعلى أثر ذلـك انـدلعت الانتفاضـة الثانيـة التي سميـت بانتفاضـة "الأقـصى" وبـالطبع انـدلعت معهـا حـرب شـعواء إسرائيلية شنت على الـشعب الأعـزل.. صـاحب الأرض.. الـذي لا يمتلـك منها إلا قطعـا مـن الحجـارة يحـاول أن يـدافع بهـا عـن نفـسه.. غـير أن الحجارة تحولت بفعل الغضب إلى نار وجحيم بدأ يـصل إلى داخـل العمـق الإسرائيلي على يد العديد من الاستشهاديين الذين لم يجدوا غير حيـاتهم يدفعونها ثمنا لتحرر وطنهم المسلوب.. ومن هنا تأكد لدينا فشل الأكذوبة المسماة باتفاقية أوسلو وأفقنا من حلمها السانج.. وبالنـسبة لـي لم أسـتطع أن أبقى في أحلامي الساذجة أيضا.. فقررت أن أفعل شيئا يفيقني مـن تلـك الأحلام ولكنني لا أملك إلا قدرا كـبيرا مـن المـشاعر الملتهبـة.. فوضـعتها على الورق بعـد عـدة أيـام قـضيتها في تـصميم ملـصقات دعائيـة تـدعو إلى مقاطعة البضائع الأمريكية واليهودية التي امتلأت بهـا الأسـواق العربيـة

ثم ذهبت بهذه التصميمات إلى زميلاتي بالعمل فتحمسن جميعا لها.. وإذا بهن يجمعن من بعضهن قدرا معقولا من المال نستطيع به أن ننسخ هذه الدعايات.. وبالفعل حدث هذا ووجدتني لأول مرة تملؤني الجرأة حتى بدأت أوزع تلك الدعايات على بعض راكبات مترو الأنفاق.. وبعض طلبة الجامعة.. في مشهد يشبه مشهد توزيع المنشورات في الأفلام القديمة.. إلا أن أبي وأمي صعقا عندما علما بذلك وعنفاني واستحلفاني بالله ألا أكرر ذلك المشهد ثانية.. فاستسلمت لهما خاصة بعد أن اقترح علي ابن عمي بأن يأخذ هذه المنشورات وينشرها على الإنترنت التي أصبحت النافذة الأحدث في تلك الأيام، وهكذا مرت الأيام ما بين الهدوء والهدوء الحذر.. ثم المصادمات من جديد وما بين هدوئي أنا أحيانا ثم اشتعالي من جديد لأجدني أهب مسرعة نحو "شباكي" الضبابي لأحاول أن أرى بصيصا من الأمل.. يعيد لي بهجة الحياة من جديد خلال تلك الفترة التفت لأجد الكثيرات من الفتيات من حولي ممن هن في مثل عمري أو أصغر.. وقد اجتمعن على شيء واحد وهو الإحباط والشعور بالغصة.. والتطلع إلى أمل لا يعرفن له عنوانا.. كان منهن المتزوجة والمطلقة وهي في عمر الزهور.. ومنهن اللاتي ينتظرن الحلم مثلي وقد طال بهن الانتظار.. وللأسف لم يسفر انتظارهن إلا عن ألم وحسرة.. لم أكن أستطيع أن أدلي بدلوي كثيرًا

في منتدياتهن لكني كنت أقدم لهن شيئا يحتجنه كثيرًا، خاصة في هذه الأيام التي قل أن يستمع فيها أحد لأحد.. فأصبحت بالنسبة لهن "أذنا" يتجهن إليها مباشرة من أجل البوح والفضفضة.. وعلى ذلك سمعت من الأحاديث والحكايات ما يجعل كل النوافذ إلى العالم وإلى حياة أفضل تضييق حتى لا نستطيع أن نرى من خلالها سوى الوهم والسراب فهناك من تزوجت لكنها لا تزال تنتظر "العدل"، أي أنها لم تجد في زواجها ما يشعرها بالأمن والسكن.. وهناك من تزوجت لمدة عام ثم طلقت وقد خرجت من تلك الزيجة بطفل وعت عيناه من الدنيا على أم محبطة وأب لا وجود له إلا في شهادة الميلاد وهناك من كانت أتعس حالا فتزوجت لمدة أربعة أيام فقط.. سافر بعدها الزوج إلى بلد عربي كان يعمل به على أن يبعث إليها لتلحق به هناك.. فإذا بالمشاكل تدب بينهما على البعد.. وإذا به يتهرب منها.. وتظل سنوات لا تعرف عنه شيئا.. ثم أخيرا يظهر ليساومها على الطلاق من زيجة موثقة على أرض الواقع بأربعة أيام فقط. أما من هن على حالهن مثلي.. فقد مررن بمثل تلك المواقف العجيبة والأشخاص الغريبة التي مرت بي.. فتحكي لي إحداهن عن عريس جاء بصحبة والدته التي لها حق التصرف في كل شيء.. فإذا بالسيدة تسأل والد الفتاة في أول مقابلة لها بأسرة الفتاة.. عن بيته الكائن بإحدى المدن

الجديدة إن كان ذلك البيت مكتوبا باسمه أم باسم بناته؟! وأخرى تحكي لي عن إحدى جارتها التي فوجئت بأحد الشباب ومعه أمه أيضا يطرقان بابهما ويعرفان بنفسيهما أنهما من جيرانهم وأنهما جاءا لطلب يد إحدى بنات هذه الأسرة.. وحين سألتهما أم الفتاة التي فتحت لهما الباب عن أي بنت يقصدان.. أجابت والدة العريس الشاب في بساطة "اللي عندها عربية" أي أنها لم تكلف نفسها حتى بالاستعلام عن اسم الفتاة التي تريدها زوجة لابنها.. وإنما كان يكفي الفتاة أن لديها سيارة حتى يسعى إليها من لا يعرفون عنها سوى ماركة سيارتها وهناك من حكت لي عن أحد الشباب الذي كان صديقا لأخيها وكان هذا الشاب خاطبا ويضع بإصبعه "دبلة" لكن أخاها فوجئ ذات يوم بهذا الشاب يقول له إنه مسافر إلى إحدى المحافظات مع والده لرؤية عروس.. فسأله أخوها لمن؟ فقال له: لي.. فتعجب وسأله أولست خاطبا ولا تزال الدبلة بيدك.. فأجابه الشاب أيضا بكل بساطة: آه بس يمكن ألاقي "حاجة" أحسن.. وأخرى تحكي لي أن أكثر من شاب تقدموا لها.. كان الحوار الأول فيما بينهما والذي طرحه "عريس الغفلة" بالطبع محوره سؤال واضح وصريح لها.. كم ستدفعين لي من راتبك الشهري؟! وهكذا أصبح الحديث اليومي فيما بيننا.. ما الذي حدث؟ أين الغلط؟ وأين العيب؟ أهو فينا أم فيهم؟

هل نحن المتخلفون عن الزمن.. أم أن الزمن تغير وأصبح سوقا تجارية وكل واحد و"شطارته".. بالتأكيد هناك عيوب كثيرة لحقت بفتيات هذا العصر كما لحقت بفتيانه.. ولكن الأكثر تأكيدا أن من دفع ثمن هذه العيوب هو تلك النخبة من الشباب، خاصة من الفتيات اللاتي تخلفن عن عصرهن وهن تلك المجموعة التي لم تستطع التكيف مع مفردات العصر الجديد.. ربما لم يستطع هؤلاء الشباب أن يلتقوا.. وربما التقوا بالفعل ولكنهم لم يجدوا بعضهم البعض وكأننا في سوق تجارية في فترة الأوكازيون.. ينزل الشطار في بدايته ليلتقطوا "اللقط" أو الفرص الجيدة جدا، أما الخائبون فينزلون متأخرا ليفاجئوا بأن ما تبقى لا يصلح لهم على الرغم من أنه قد يكون جيدا لكنه لا يصلح لهم.. فمنهم من يرضى بأي شيء ومنهم من لا يرضى بفكرة الشراء لمجرد الشراء ويظل لديه أمل في المرة المقبلة.. وهكذا يمر "الأوكازيون" وراء "الأوكازيون".. أو العام.. وراء.. العام ولا نعلم في أي وقت سنجد ما يتناسب معنا.

أما نحن في العمل فقد وجدنا العام يمر تلو العام ونحن لا نزال على حالنا.. غير أن العمل مع كل عام يمر.. يزداد إيقاعه بطئا، وشيئا فشيئا.. توقفت العجلة وأصبح هناك حالة من الركود وأدركنا جميعا أن كل ما سبق من سنوات العمل الأولى لم تكن إلا حملة دعائية كبرى للنظام

السياسي بمصر.. التي تحاول أن تؤكد أن التعليم يحظى بالاهتمام الأكبر من قبل الدولة.. ثم ماذا تبقى لدينا؟ تبقى وقت طويل جدا نقضيه دون أي عمل.. خلال هذا الوقت تحولنا نحن "النسوة" إلى شيء أشبه بالعدادات.. بالطبع لا أقصد "المعددات" لا سمح الله، وإن كنا لا نختلف كثيرًا عنهن.. ولكن أعني بالفعل "العدادات" اللاتي أصبح شغلهن الشاغل وأنا واحدة منهن هو "العد" فأصبحنا نعد الثواني والدقائق والساعات التي مرت بنا منذ حضورنا للعمل في الصباح إلى أن يأذن الله لنا بالانصراف.. ونعد الأيام حتى يكتمل الشهر لنستطيع بعدها أن نعد راتبنا.. ثم نعد كم يوما تغيبناه في هذا الشهر حتى يمكننا الحصول على "الحوافز" وبعدها نعد ثلاثة أشهر حتى نحصل على "الحوافز المتميزة".. التي نعدها لنستفهم بعدها إذا كان هناك "مليم" ناقص لماذا نقص هذا المليم.. وأيضا نعد من أخذ أكثر ومن أخذ أقل.. وهكذا.. أما بالنسبة لي فقد زادت الأشياء التي تعد فكنت أعد كم عدد المرات التي دق فيها جرس الهاتف.. وكم عدد الواقفات في عربة السيدات بمترو الأنفاق.. وكم عدد الدقائق التي ظللت واقفة خلالها.. وكم هي عدد المرات التي جلست فيها؟! ثم نجتمع معا من جديد عند أي مناسبة لنعد كم عدد الفتيات اللاتي ما زلن على حالهن.. وكم عدد الفتيات اللاتي انتقلن إلى خانة جديدة من التصنيف

الاجتماعي.. إلخ ثم فجأة حدث الزلزال الأقوى في عصرنا الحديث.. لتتبعثر كل الأعداد التي كنا نعدها.. وكل الأعداد التي ملأت البورصات والأسواق.. والبحار والمحيطات.. والسماوات.. كل تلك الأعداد ترنحت واهتزت اهتزازا عنيفا مع انهيار أعداد الطوابق التي تكون منها مبنى التجارة العالمي بنيويورك ببرجيه.. كان ذلك في يوم الحادي عشر من سبتمبر عام 2001م.. ذلك التاريخ الشيطاني الذي لا يزال يغير وجه العالم حتى يومنا هذا.

في البداية لم نستطع أن نخفي فرحتنا في أمريكا على الرغم من قسوة النتائج.. ولكن شيئا فشيئا أدركنا أنه كان يوما أسود علينا جميعا كمسلمين في جميع أرجاء المعمورة..

كانت المسألة شديدة الغرابة دفعتنا للتساؤل مثل كل البشر من تراه وراء تلك العملية الضخمة؟ بالغة التعقيد.. التي لا يستطيع تخطيطها وتنفيذها إلا الأبالسة أساتذة الدهاء في كل عصر.. بالتأكيد أن بصمات الفاعل لا تزال بمسرح الجريمة ولكن أحدا لا يريد أن يراها أو يتتبعها.. ذلك أن هناك بصمات أخرى أريد لها أن توضع.. وقبل أن تبدأ التحقيقات وضع المتهم الأوحد في قفص الاتهام وحكم عليه أيضا.. فصبت اللعنات على المسلمين في كل مكان وتعرض الكثير منهم للاضطهاد

والأذى.. ذلك من قبل الأفراد العاديين.. أما ما تبقى حتى يومنا هذا وأظن أنه سيظل زمنا آخر إلى أن يأذن الله بأن تـزول هـذه الغمـة.. فكانـت تلـك الحـرب الـشعواء الـتي شـنتها الولايـات المتحـدة الأمريكيـة باعتبارهـا "زعيمـة العـالم" الآن مدفوعـة بـالوقود الـصهيوني نحـو كـل الاتجاهـات الإسلامية في شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها..

ولأننا كنا قد بدأنا منذ عدة سنوات قليلة عـصرا جديـدا هـو عـصر الأقمار الصناعية والقنوات الفضائية فقد أصبح العالم كله يشاهد الأحـداث وقت حدوثها مباشرة ولكن من نوافذ متعددة وباتجاهات وزوايا مختلفة.. ولأنه قد أصبح من الصعب التعتيم والكذب في هذا الزمن حيث لا شيء مـن الممكن أن يخفى على تلك القنوات الفضائية التي تنبش وتنقب عن الأخبار في كل مكـان أولا بـأول وربمـا تـصنعها.. فقـد أصـبح هنـاك مـنهج جديـد انسحب على العالم بأسره ومن ثم على مجتمعنـا أيـضا.. ألا وهـو مـنهج: "البجاحة" فـصدر قـاموس جديـد وضـع معـاني جديـدة للكلمـات بحيـث أصبحت كلمة مسلم بكـل أسـف تعـني "إرهابيـا" وانـبرى الـزعيم الأكثـر بجاحة على مر العصور "جـورج بـوش" الابـن.. لـيعلن بكـل صـفاقة أنـه مفوض "إلهيـا" ليقـضي علـى "الإرهـاب" في جميـع أرجـاء العـالم.. وقـام بتهديد العالم بأسره مـن خـلال عبارتـه الـشهيرة "مـن لـيس معنـا فهـو

ضدنا"..

ومن هنا بدأت الحرب على أفغانستان.. وسط أعداد حاشدة من البشر الذين عارضوا هذه الحرب ولكن القافلة العسكرية الأمريكية سارت آمرة لجيوش التحالف الغربي بالحرب على جيش طالبان "الغلبان" لتحقق الانتصار "الجبار". ثم اتجهت القافلة الأمريكية وقد فتحت شهيتها للدماء المسلمة صوب العراق وسط حشود أكبر من الرافضين واللاعنين لهذه الحرب.. ولكنها أيضا سارت محطمة كل شيء يقف أمامها ورافعة شعار: لا صوت يعلو على الصوت "الأمريكاني".. وعندما كانت الحرب الأمريكية ضد الحياة على وشك الاشتعال.. كانت هناك حرب من نوع آخر تدور في المكان الذي أعمل به ولكنها ربما كانت حربا باردة.. تصورت حينها لحيز من الوقت أنني أستطيع أن أزج بنفسي فيها.. رغبة مني في ممارسة الحياة التي نأيت بنفسي عنها زمنا طويلا.. وعلى ذلك حاولت أن أعيش "الدور" وأن أشحذ ما تبقى لي من قوة ذهب الجانب الأكبر منها مع هواء نافذتي "الوردية" التي ظللت واقفة أمامها طيلة سبع سنوات مضت.. خلال تلك الحرب الباردة اكتشفت أنني خسرت كل ما تبقى لدي من المعاني الجميلة التي قد تدفع الإنسان إلى تقدير إنسانيته التي خلقها الله في أحسن تقويم.. وقبل أن أبدأ رحلة

العودة إلى أسفل سافلين.. وجدتني أرفض وأتمسك بآخر خيط يربطني بإنسانيتي.. وآثرت أن أكتفي "بالفرجة" فقط ولا أشارك في تلك المعركة.. ولكنني اكتشفت أنني سأكون أول الضحايا ففي ساحة المعركة لا مكان "للمتفرجين"، فإما أن تكون مشاركا أو تكون ضحية.. وقفت أسأل نفسي ماذا أريد أن أكون؟ مشاركة مستعدة لخسارة كل شيء أم أكون ضحية خاضعة متقبلة لأي شيء وهنا تساءلت من جديد.. من أجل ماذا؟ ومن أجل من؟ أكون ذلك أو تلك؟ في هذه اللحظة وجدتني آخذ قرارا بالانسحاب دون أن أحسب حساب العواقب ودون أن أمهد لنفسي الطريق.. ودون أن أخبر أحدا سوى نافذتي "الوردية" التي أحببت أن ألقي عليها نظرة الوداع فتركت لديها آخر دمعة استطعت أن أذرفها وقررت إغلاقها نهائيا.. وانصرفت لا أحمل معي سوى بعض الذكريات.. وقليل من الخبرات.. وكثير من الشجن واتجهت عائدة إلى أرض الأحلام من جديد.. إلى "البيت" الذي لم يفارقني لحظة.. ولم يبرحني منذ أن وعت عيناي على هذه الحياة.. فكان هو "الحياة".. عدت إليه وارتميت بأحضانه زمنا لا أعرف كم هو.. ولا كم بقيت أشعر بلذة الإنسانية التي افتقدتها خارجه.. أقف وورائي كل الأحلام والذكريات والآلام.. أما أمامي فلا أرى سوى "الرضا" واكتفيت به وتنفسته.. فاستعدت "روحي"

الضائعة من جديد. وظننت أنني سأبقى على هذه الحال وقتا أطول.. يمكنني بعده النهوض من جديد.. ولكن وقع المحظور.. وقع ما كنا نترقبه.. ووقع الحلم والأمل.. وقع السلاح.. وحدث الانهيار.. والاغتصاب.. وقعت بغداد..

كان الحدث أكبر وأعظم من الإحساس به والتعبير عنه.. كان الشلل التام هو رد الفعل الطبيعي لنا جميعا.. حكاما وشعوبا.. حتى الدموع كانت قد جفت.. والصراخ الذي صرخناه قبل الحرب كان قد قطع أحبالنا الصوتية.. فخرسنا لهول الحدث.. أما أعيننا فلا تزال ترى.. لكنها بكل أسف ترى العار كله.. كانت ترى عملية الاغتصاب كاملة.. ولكن دون وعي أو إحساس.. بما يدور.. فقد فَقَدَ العقل قدرته على الاتصال.. وأصبح الجسد عاجزا تماما عن الحركة.. ولم تبقّ حتى مشاعر الألم..

وقعت بغداد.. ووقعنا معها جميعا.. وجلس العالم كله يتابع من جديد ومن خلال نافذة واحدة.. في الوقت نفسه.. دخول رعاة البقر إلى بغداد "حاضرة الدنيا".. وقفنا لنشاهد مع العالم كله محاولات جنود "المارينز" الأشاوس إسقاط نظام "صدام حسين" المتمثل في "تمثاله" واحتفالهم الوضيع بنصرهم "الساحق" الآن.. وبكل حزن.. أصبح الأمر

حقيقة.. وتأكد لنا أن هناك دولتين عربيتين أصبحتا تحت الاحتلال.. والبقية تأتي.. أما أنا فقد بحثت عن حالة الرضا التي توهمت أنني اخترعتها حين أقفلت ورائي كل النوافذ والأبواب.. واكتفيت بعالمي الرحب الذي ظللت عمري كله أنتظره.. فإذا بها قد تبخرت من بين يدي فقد كنت أضعف من هذا السيل العارم من الرافضين والمستنكرين لاختياري.. بتركي العمل، حاولت جاهدة أن أساند نفسي وأدعمها.. وأثبتها على موقفها.. ولكن الاتجاه العام كان أقوى فقررت أخيرا أن آخذ بالحل الوسط كعادتي على الرغم من كراهيتي الشديدة دائما له.. وهي أن أكتفي بأخذ إجازة من دون مرتب قابلة للتجديد.. وهكذا بقيت شعرة معاوية من جديد بيني وبين العمل.. وتأكد لي رأيي السابق بأن العمل الحكومي هو زواج كاثوليكي ليس به طلاق.. ومرة أخرى دفعت إلى فعل أي شيء تحت تأثير الرأي العام حيث كانت كل وجهات النظر التي من حولي تستحق التفكير.. عدا وجهة نظري التي اقتنعت بها وحدي.. ولم أعد أستطيع مواجهة الناس بها.. فخرجت من جديد أبحث عن دور على غير اقتناع مني.. لكنني سأستمر بناء على رغبة الجماهير الذين لم أستطع مواجهتهم بأن لدى اشتياق عظيم للبيت لا أعرف كنهه.. وأخيرا قررت أن ألتحق بالدراسات العليا في النقد الفني بأكاديمية الفنون.. وذلك

لأنني كانت لدي رغبة مني في دراسته من قبل.. على أمل أن أجد شيئا يجذبني ويلهيني عن ذلك الحلم المريض. ثم زاد الأمر صعوبة حين قرر أبي وأمي أن يعودا بي عشر سنوات إلى الوراء.. فقررا من جديد.. أن يستأجرا شقة بالبلد، أي قرية والدي ظنا منهما أنهما يهيئان لي "مستقرا" بعد أن فقدا الأمل في زواجي.. واعتقادا منهما أن ليس لي في نهاية الأمر سوى العودة إلى الجذور.. بين الأهل والأقارب.. بالإضافة إلى حنين والدي الذي يعاوده بين الحين والآخر للأرض الأم.. لم أكن متقبلة هذا الأمر.. ولكن اقتناعهما به وإقناعهما لي بأن تلك الشقة ستكون بمثابة "استراحة" فقط ننزل إليها بين الحين والآخر.. ولأنني أشعر بأنني أكبلهما معي وأقيد حنين أبي إلى أيام صباه فقد قبلت وأعلنت رضاي على غير رضا.. ولكنني شيئا فشيئا استحضرت الحلم القديم دون وعي مني، ذلك الحلم الذي حلمته قبل أسبوع واحد من الزلزال.. ووجدتني أشتم رائحة الموت.. ذات ليلة وأشعر أنه قد حان الموعد.. وأنني سأستقبله وقتها.. في تلك اللحظات فقدت التركيز تماما واستسلمت كلية للفكرة.. حتى نزل أبي فجرا.. وهو في حالة رعب شديدة وأحضر لي الطبيب الذي طمأنه وطمأنني.. وطلب مني إجراء بعض التحاليل الطبية.. التي أجريتها فيما بعد، والحمد لله لم يجد بها شيئا مقلقا لكنني وجدت أن

الحالة نفسها تتكرر ولكن في مواقف مختلفة.. مرة أثناء الصلاة.. ومرة وأنا راكبة لمترو الأنفاق.. فأدركت أنني على موعد مع المرض النفسي.. الذي لم أكن أتصور أبدًا أنني سأواجهه يوما ما.. ووجدتني للمرة الأولى في حياتي أطرق "باب" الطبيب النفسي، لم أرَ من قبل عيادات نفسية إلا من خلال الأفلام والمسلسلات ولذلك كان لدي تصور أنني سأدخل إلى تلك العيادة من باب سري حتى لا يعرف الناس بأنني مريضة نفسية.. ولكن للأسف خابت تصوراتي فقد دخلت من "باب" يدخل منه الجميع.. ويطلع عليه الجميع.. وأنا بالطبع ظاهرة أمام الجميع.. في البداية كنت متحرجة أشد الحرج.. ثم شيئا فشيئا زال عني هذا الحرج وأصبحت أذهب وحدي.. ولأول مرة يرتضي أبي أن يقفل علي "باب" مع شخص غريب عني.. وأظل أنا وهذا الشخص نتحدث فيما يقرب الساعة في أدق تفاصيل حياتي.. لم أتخيل يوما ما أنني سأجلس تلك الجلسات.. ولم أكن أتخيل أن ما زال هناك دمع بمقلتي.. ولكنني فوجئت بأن هناك أنهارا من الدموع كانت محتبسة بداخلي ما لبثت أن أعطاها الطبيب الإذن بالهطول.. فوجدتني أبكي بكاء حارا مرة بعد مرة.. حتى أصبحت مقابلة الطبيب شيئا فشيئا أمرا أشبه بجلسات الترفيه.. فكنت أشعر في كل مرة أذهب فيها أنني على موعد "معي" أرى فيها نفسي للمرة الأولى..

وأواجهها.. وأحكي.. وأتصالح معها وأرفضها أحيانا ثم أعود لها لأتقبلها من جديد.. لم أنم على "الشيزلونج" مثل الصورة الكلاسيكية المعروفة في الدراما المصرية.. وإنما كان حديثنا حديث شخصين راشدين.. في مواجهة بعضهما البعض.. هكذا وصف لي الطبيب شخصيتي من خلال جلستنا معا فعرفني أن هذه الشخصية التي أجلس بها معه هي نفسها التي أتعامل بها في كل وقت.. ألا وهي شخصية "الراشد" التي أصبحت مسيطرة علي وظالمة وطاغية لشخصيتين أخريين يجب أن تكونا موجودتين داخل كل شخص سوي وهما شخصية "الطفل" وشخصية "الأب" أو "الأم" وبحكم وضعي الاجتماعي فإن شخصية "الأم" لا أستطيع ممارستها إلا فيما ندر من الوقت مع أطفال العائلة أو أبناء أختي أو صديقاتي.. وأحيانا مع أبي وأمي ذاتيهما.

أما شخصية الطفل فهي المشكلة.. فهي كما قال لي "ضعيفة" جدا أو هاربة مني.. وجلسنا نتباحث معا فترات.. كيف أعثر على هذا الطفل الهارب أو التائه مني.. أما الحالة التي تسببت لي في أن أحتاج للعلاج النفسي فقد شخصها أنها حالة "قلق نفسي" واستجبت كثيرًا والحمد لله للعلاج ولأسلوب الفضفضة وطريقة التفكير على أساس منطقي وصحي.. ولكنني لم أستطع أن أستجب لنصائحه فيما يختص بعودتي إلى العمل..

فلم أستطع أن أتخيل نفسي أعود لحالة "العد" أو "التعديد" من جديد.. أو أن أعود إلى نافذتي الخاصة جدا لأغني "الأطلال" من جديد.. وكذلك لم أستطع أن أستجيب لنصيحته بامتناعي عن مشاهدة نشرات الأخبار وملاحقة التطورات السياسية.. فلم أستطع أن أمنع نفسي من الاهتمام بالجرح الجديد الذي نزف يوم الثاني عشر من يوليو عام 2006م.. عندما قامت إسرائيل بمهاجمة لبنان جوا وبحرا وبرا لتحيل ذلك البلد الموعود بالعذاب والحياة معا.. إلى ركام خلال عدة أيام.. وتحيل شعبها إلى لاجئين خارج لبنان وداخله.. لم أستطع أن أغلق عيني أو أضع أصابعي في أذني.. ولم أستطع أن أحبس ذلك القلب الذي يحاول أن يستعيد حيويته فأمنعه من التحليق فوق سماء لبنان.. ليحتضن كل طفل وأم.. وشيخ.. وكذلك جنود المقاومة البواسل الذين عرفتهم جيدا عندما انسحب ذلك العدو البغيض من جنوب لبنان عام 2000م.. ولم أستطع أن أحبس قلبي وهو يلف ويدور يبحث عن أي خبر.. يطمئن به على ذلك الرجل "الرمز" الذي اشتاقت له أمتنا.. وقد غابت عنه الأخبار وكثرت التكهنات التي تسمح للعقل بأن يسرح مع أفكار الشيطان.. التي لا أريدها ولا يريدها أحد.. حتى جاء الأمل في اليوم الثاني من الهجمة الشرسة.. عندما كنت أطالع قناة "الجزيرة" وإذا بمقدمة الأخبار تعلن عن أن هناك

كلمة "للسيد حسن نصر الله" ولكن صوتية.. فإذا به يغرد من جديد وإذا به يعلن في تلك اللحظة أن السفينة الحربية الصهيونية "ساعر" التي أطلقت سمومها على بيروت الحزينة.. الآن تشتعل فيها النيران وتغرق بأيدي المقاومة الباسلة.. لم أكن أصدق أنه لا يصدق.. فقد عهدناه دائما.. يتكلم حين يستطيع التكلم وينطق حين يكون الصدق هو المنطق.. فإذا به يتكلم للمرة الأولى منذ اندلاع الهجمة الفاجرة على لبنان.. يتكلم ليصمت الجميع.. وينصت له.. يتكلم ليسبق كل نشرات الأخبار بكل وسائلها الحديثة ليعلن عن شيء يقبض عليه ويثق به.. ولم أستطع أن أمنع بكائي فرحا بنجاته.. وفرحا بإصراره.. وإنجازه.. أخذت أتمتم بالدعاء إلى الله وبحمده.. أغمضت عيني اللتين انهمرت منهما دموع الاغتسال والطهر.. واحتضنت صورته بداخلي وقد استرقت أغنية كانت بالصدفة تذاع من خلال حفل عرس بجانبنا.. وقد نسي أصحابه الحرب ودمارها ووجعها وملئوا الدنيا ضجيجا وصخبا ولكنني لم أعد أستمع إلى هذا الصخب والضجيج.. كل ما أستطيع في هذه اللحظة سماعه فقط هو تلك الأغنية التي أظن أنها كانت تصلني وحدي.. أنا فقط.. في تلك اللحظة الخاصة جدًا.. مع صوت الشابة المصرية "شيرين" التي كانت تقول:

"مش عايزة غيرك انت

والله بحبك انت

والحب كله انت

وانت الناس كلها

دي سنين من العمر راحو

قلبي عاشها في جراحه

كانت ناقصاني حاجة

ومعاك.. كملتها"..





إيناس طه عامر

بيت العَدَل

إذن هذه المذكرات - وإن كانت تخصنى أنا شخصيًا - إلا أننى اعتقد أنها تخص الكثيرات، بل والكثيريين أيضا..

وكذلك لم تنفصل هذه المذكرات - برغم خصوصيتها- عن أحداث عامة سياسية و إقتصادية و فنية و إجتماعية كثيرة، شكلت خلفية للأحداث الخاصة جدًا لي.. وأيضا ربما كانت، فى الأساس، أداة فاعلة جدا وصانعة لتلك المشكلة التى نحن بصددها..

ولذلك فإن هذه المذكرات لا تبدأ من حيث مرحلة العنوسة نفسها ..

